حقيقة الخلق ونظرية التطور



محمد فتح الله كولن

مقدمة المترجم

كانت الفلسفة في بداية نشوئها وتطورها تبحث في كل شيء وتهتم بكل شيء ومن ضمنها العلوم المختلفة. أي كانت العلوم ساحة من ساحات الاهتمام الشامل للفلسفة. نرى أن أرسطو -بجانب اهتمامه بارساء قواعد المنطق- يهتم بجميع العلوم المعروفة في عهده بدءاً من الرياضيات وانتهاءً بعلوم الأحياء. ونرى أفلاطون -أستاذ أرسطو- يكتب على مدخل مدرسته: "من لا يعرف الرياضيات فلا يدخل إلى هنا".

وعندما اتسعت العلوم اتساعاً كبيراً وتشعبت، لم يعد هذا ممكناً و لم يعد في وسع أحد أن يحيط بجميع العلوم إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة فانفصلت ساحة العلم عن ساحة الفلسفة تدريجياً.

أي أن علوم الطبيعة والنفس والرياضيات والفلك كانت فصولاً من مبحث واحد هو الفلسفة. فلما اكتمل نموها أصبحت علوماً مستقلة كما نراها اليوم.[1] وقد اشتغل أرسطو وألف في الأخلاق والسياسة والمنطق والبلاغة والفلك وعلم الحيوان. كما كان الفلاسفة المسلمون أمثال الفارابي وابن سينا من هذا النمط الموسوعي، فلم يقتصر نشاطهم في ساحة الفلسفة والمنطق بل تعداها إلى الرياضيات والفلك والموسيقى والطب واللغة.

ولكن العلوم والنظريات العلمية مع كونها منفصلة منذ قرون عن الفلسفة إلا أنها تعد -كما ذكرنا- أهم عامل وموجّه لجميع المدارس الفلسفية، بل

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص ٦.

سبباً في نشوء مدارس فلسفية عديدة. فمثلاً نرى أن القوانين التي اكتشفها نيوتن أثّرت في جميع فلاسفة عهده وفيمن جاء من بعدهم بقرون، حيث أصبحت صورة العالم بعد اكتشاف هذه القوانين كأنها آلة ضخمة في كون ساكن ولانهائي بثلاثة أبعاد تسير حسب قوانين محددة ومعلومة، وترسخ مبدأ "السبب – النتيجة" ترسخاً كاملاً، حتى قال بعضهم: "اعطني جميع المعلومات وأنا اسجل لك سير الكون حتى نهاية عمره".

وبعد اكتشاف "النظرية النسبية" من قبل انشتاين، و"النظرية الكمية" من قبل ماكس بلانك وهايزنبرغ وغيرهما من العلماء، اضمحلت تلك المدارس الفلسفية وظهرت مدارس فلسفية أخرى حسب المنظور الجديد لكون ذي أبعاد أربعة (بعده الرابع هو الزمان)، وتزلزل المبدأ السابق في "الحتمية Determinism" واختلفت النظرة إلى العالم في مقياسه الصغير (أي الذرة) وفي مقياسه الكبير أيضاً (أي الكون). أي أن العلم أصبح يقود الفلسفة ويوجهها. ولا عجب في هذا فما دامت الفلسفة تبحث عن الحقائق الكبرى في هذا الكون وفيما وراءه، فمن الطبيعي أن تتأثر بالنظريات العلمية التي تساهم في زيادة معرفتنا بهذا الكون وبالقوانين السائدة فيه. وقد تخطئ الفلسفة في تفسير بعض هذه القوانين عند قيامها بتفسير الكون على ضوئها، ولكن العلوم تبقى مع هذا العامل المؤثر الأول في رسم اتجاهات مختلف المدارس الفلسفية، لأن أي مدرسة من هذه المدارس لا تستطيع تجاهل المعطيات العلمية.

ومن هنا تأتي الأهمية الفائقة للنظريات وللقوانين العلمية من الناحية الفكرية والفلسفية إضافة إلى أهميتها في التقدم التكنولوجي الذي يساهم في زيادة رفاهية الإنسان وتقدمه في مضمار المدنية.

وكذلك من هنا تأتي أهمية "نظرية التطور" لدارون. ذلك لأنها أثرت تأثيراً بعيداً في جميع المناحي الفكرية للانسان... أثرت في الفلسفة، وفي علم الاجتماع وفي علم النفس وفي السياسة، وقال عنها كارل ماركس: "إن

هذه النظرية هي تطبيق فلسفتنا في صراع الطبقات في الطبيعة" مشيراً بذلك إلى فكرة "الانتخاب الطبيعي" في نظرية دارون، فأثر هذه النظرية واضح في العديد من المدارس الفلسفية. فبعد انتشار هذه النظرية وذيوعها نرى أن العديد من الفلاسفة بدأوا بسحب هذه النظرية من إطارها في عالم الأحياء ليطبقوها على مستوى الكون. لذا نرى تعابير فلسفية جديدة بعد ظهور هذه النظرية وشيوعها مثل "التطور الانبثاقي Emergent Evolution للفيلسوف البريطاني "لوي مورجان" Lloy Morgan و"التطور الخلاق" للفيلسوف الفرنسي هنري برغسون.

والشيء نفسه نلاحظه عند الفيلسوف الاسترالي صمويل ألكساندر. أي هناك تطور على مستوى الكون، وأن المادة كانت في صورة بسيطة في أول أمرها ثم تطورت إلى مادة لها خواص معينة كاللون والرائحة، ثم ظهرت الحياة وبعدها العقل، وإن الله يمثل المرحلة النهائية للعقل، أي أن الله -تعالى الله علواً كبيراً- ليس إلا نتيجة هذا التطور الذي بدأ منذ الأزل في هذا الكون الذي عدوه قبل عقود من الزمن لانهائياً من ناحية الزمان والمكان. هذا عند طائفة من الفلاسفة المؤمنين بوجود الله... أما المنكرون والملحدون من الفلاسفة فقد قالوا بالمصادفة. أي أن المادة وهي تتقلب في أدوار وأطوار وحالات مختلفة أنتجت هذا النظام الرائع المشاهد في الكون وفي الحياة.

كما استندت كثير من النظريات السياسية كالنازية والفاشية إلى نظرية التطور مستخدمة إياها كسند علمي لأيدلوجياتها البعيدة عن الإنسانية، فما دامت الحياة صراعاً يبقى فيها الأقوياء ويزول من مسرحها الضعفاء لذا فمن حق العناصر القوية (كالعنصر الجرماني في النازية وكالرجل الأبيض عند العنصريين البيض) أن تملي إرادتها على العناصر الأخرى وأن تفعل بها ما تشاء إلى حد الإبادة.

كما كانت هذه النظرية خلف ظاهرة الإباحية الأخلاقية أو ما سميت بـ"الثورة الجنسية" التي اجتاحت العالم الغربي والعديد من بلدان العالم. لأن

الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كبتها، وما الخُلُق والضمير إلا قشور زائفة صنعها المجتمع، وهي لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

لقد شهد القرن التاسع عشر ميلاد ثلاث نظريات أثرت في الحياة الإنسانية تأثيراً خطيراً وسلبياً وهي: النظرية الماركسية ونظرية دارون في التطور ونظرية فرويد في التحليل النفسي. ولعل نظرية التطور لدارون هي أخطر هذه النظريات، لأنها حاولت البرهنة على "حيوانية الإنسان". وعندما يتم إثبات هذه الصفة الحيوانية في الإنسان ويدمغ بها فمن السهل قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية وما يشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

وهناك ظاهرة تلفت النظر في موضوع نظرية التطور، لأن هذه النظرية خرجت من كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطأ إذ تحولت إلى "أيدلوجية" يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى، فلا نرى عالماً في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه، لأن غاية العلم هي الوصول إلى الحقيقة. بينما نرى أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط.

وأولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني "ارنست هيجل ١٨٢٤-١٩١٩" وكان من أنصار نظرية التطور. ولما رأى أن صور الأجنة لا تتطابق تماماً مع هذه النظرية قام بعمليات رتوش وحذف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرية "التلخيص Recapition Theory" (وهي إحدى النظريات السابقة التي قدمت كبرهان على نظرية التطور ثم نفض

العلماء أيديهم عنها بعد ثبوت خطئها). ولكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف وتحدى فيها "ارنست هيجل" الذي لم ير بدّاً من الاعتراف بجريمته العلمية والأخلاقية بعد فترة صمت وتـــردد، فاعترف في مقالة كتبها في ١٤/١٢/١٩٠٨ وقال فيها:

(إن ما يعزّيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قـــاموا بعمليـــات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور).

إذن فهناك مئات من عمليات التزوير -وليست عملية واحدة أو عـــدة عمليات- تمت في علم الأحياء وفي علم التشريح وعلم الأنـــسجة وعلـــم الأجنة قام بها العلماء من أنصار التطور.

إذن على مثل عمليات الغش والتزوير هـــذه قامـــت نظريـــة التطـــور وانتشرت، وتمت بها أيضاً عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضـــوع، وأصبح من لا يؤمن بها رجعياً وجاهلاً!!.

وهناك عملية تزوير مشهورة جرت في إنكلترة، وهي عملية تزوير "إنسان بلتداون Piltdown Man" بدأت في ١٩١٢، فقد صنعوا جمجمة من تركيب قحف إنسان على فك قرد اورانجتون مع إضافة أسنان إنـــسانية إلى الفـــك، وقدموا هذه الجمجمة على أنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان. وخدعت عملية التزوير هذه كبار علماء البيولوجيا وأطبّاء الأسنان الذين فحصوا هـــذه الجمجمة المزيفة مدة تقارب ٤٠ سنة، وألفت مئات وآلاف الكتب وتم تقديم رسائل دكتوراه عديدة، وكتب ما يقارب نصف مليون مقالة حولها. وفي سنة ١٩٤٩ قام "كنت اوكلي" بإجراء تجربة الفلور على هذه الجمجمة فتبين أنها ليست قديمة (اُدّعي سابقاً عمرها يبلغ نصف مليون سنة). ثم قـــام "كنيـــت أوكلي" و "سير ولفود لي كروس كلارك" من جامعة اكـــسفورد بـــإجراء

تجارب أكثر دقة واستخدموا فيها أشعة اكس فتبين أن هذه الجمجمة زائفة تماماً ومصنوعة. وجاء في التقرير الذي نشر سنة ١٩٥٣ (إن "إنسان بلتداون" ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد أورانج بعمر عشر سنوات، والأسنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفك. وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها).

وهناك حادثة "إنسان نبراسكا" فقد عثروا على سن واحدة ليعلنوا أن صاحب هذه السن هو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صوراً خيالية لهذا الإنسان، بل حتى عن حياته العائلية، وقدّم علماء التطور هذه السن كدليل في محكمة "سكوبس"[١] عام ١٩٢٥. وعندما اعترض الطرف الآخر[٢] سخروا من جهله!! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد "سكوبس" إلا أن الضجة التي أثارها أنصار التطور في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفاً كبيراً على المتهم، وغضباً على المحكمة.

وفي هذه المحكمة قدّم علماء التطور هذه السن كدليل لا ينقض على صحة التطور، لأنهم اخترعوا من هذه السن الواحدة إنساناً أسموه "انسان نبراسكا" وأطلقوا عليه اسماً لاتينياً رناناً ليسبغوا عليه صبغة علمية.

ولكن تبين فيما بعد أن هذه السن لا تعود لإنسان، ولا لقرد... بل لخنزير بري!!... نعم خنزير!! إذن تأملوا مدى المبالغات الموجودة في

---

(١) محاكمة "سكوبس" عقدت في مدينة دايتون، في ولاية "تنسي" الأمريكية في صيف ١٩٢٥ وثارت حولها ضجة كبيرة حتى أن عدد الحاضرين إلى المحكمة زاد عن عشرين ألف مستمع. وخلاصة القضية أن حكومة ولاية تنسي أقامت الدعوى على أستاذ يدعى "سكوبس" لأنه عارض صحة الإصحاح الأول من سفر التكوين عن خلق الانسان، وقدّم نظرية التطور لدارون كتفسير بديل لقضية الخلق.

(٢) وهم: الأستاذ "كونكلن" استاذ البيولوجيا في جامعة برنستون، والدكتور "أوسبرن" رئيس امناء متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك، والدكتور "دفنورت" مدير دار النشوء في معهد كارنيجي بواشنطن.

تفسيرات علماء التطور للمعطيات العلمية أو للمتحجرات التي يعثرون عليها، ومدى انحرافهم عن النهج العلمي الذي يجب أن ينطلق من مبدأ "الموضوعية" في تفسير المعطيات والظواهر العلمية والطبيعية، بينما ينطلق هؤلاء العلماء من فكر مسبق، وهو أن نظرية التطور صحيحة. لذا يقومون بليّ عنق هذه الظواهر والمعطيات العلمية لكي تتوافق مع ما يعتقدونه من فكر مسبق. ولا يترددون -كما رأينا- حتى من القيام بعمليات تزوير معيبة ومشينة أخلاقياً وعلمياً في هذه السبيل. وهناك أمثلة أخرى كثيرة في هذا الصدد لا نوردها هنا خشية الإطالة.

إذن ألا يحق لنا أن ننظر بعين الشك إلى جميع التفسيرات المقدمة من قبل علماء التطور ولجميع ما يعدونه أدلة في هذا الصدد وهم بهذه الدرجة من البعد عن الحياد العلمي؟

أجل!... لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية -أو فرضية- علمية يمكن دراستها ووضعها على المحك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت "أيدولوجية" عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تطلب الأمر القيام بعمليات تزوير مشينة.

ولكن لماذا أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟

لأنها النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد، لكونها تدعي القيام بتفسير الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق. فإذا ظهر أن كل نوع من أنواع الأحياء خلق على حدة، وأن الحياة لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر مستحيل، وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى.

ولو أردنا الإشارة باختصار إلى بعض الشواهد التي تقف ضد نظرية التطور لقلنا:

١- إن كل نظرية علمية تسعى إلى تفسير كل أو معظم الظواهر المتعلقة

لها. فمثلاً عندما تضع نظرية حول الجاذبية الأرضية فيجب أن تقوم هـــذه النظرية بتفسير جميع الظواهر المتعلقة لها. وعندما تضع نظرية حول ماهيـــة الضوء وخصائصه يجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير كل ما يتعلق بالـــضوء وبخصائصه. وعندما تشذ أي ظاهرة من الظواهر عن النظريات الموضـــوعة لتفسيرها تتم محاولة اكتشاف نظرية أخرى أكثر شمولاً من النظرية السابقة.

إذا نظرنا إلى نظرية التطور من هذه الزاوية نرى أنها نظرية قاصرة جـــداً في هذا الصدد. وندرج أدناه بعض المواضيع التي لم تقم هذه النظرية بتقـــديم أي تفسير لها:

أ- أصل الحشرات: لا تقدم هذه النظرية أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ % من مجموع الحيوانات.

بـــ- أصل وتطور القوارض غير معروف، مع أن أعدادها هائلة وتزيـــد على أعداد الثدييات الأخرى.

جـــ- أصل الطيران بجميع أشكاله غير معروف تماماً. فكما هو معلـــوم فهناك أربعة أنواع من الحيوانات الطائرة:

١- الحشرات

٢- الطيور

٣- بعض اللبائن (كالخفاش)

٤- بعض الزواحف الطائرة (انقرضت)

لا تقدم نظرية التطور أي جواب حول سؤال: كيف ظهر الطيران عند هذه الحيوانات؟

إذن ما بالك بنظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ % من الظواهر التي من المفروض تناولها ولا تستطيع تسليط الضوء عليها؟ وما دامت هذه النسبة الكبيرة من الظواهر غير معروفة وغير مفسرة من قبلها فكيف يمكـــن عـــدّها نظريـــة صحيحة؟ وهل هناك نظرية علمية أخرى غير هذه النظرية أبدت عجزها عن

تفسير ٩٠ % من الظواهر التي تصدّت لتفسيرها؟ وهـل يمكـن أن تقبـل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية؟

٢- كيفية ظهور الحياة في الخلية الحية الأولى غير معروفـة، والقـول بالمصادفة ليس جواباً علمياً، بل جواباً يصادم العلـم لأنـه كلمـا زادت معلوماتنا عن الخلية الحية ومدى تعقيدها تأكدنا أكثر وأكثر مدى استحالة ظهورها مصادفة. ويكفي أن نعلم أن جزيئات D.N.A الموجودة في الإنسان تحتوي على معلومات لو قمنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا لـ ٩٠٠ ألف صفحة تقريباً، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعـارف البريطانية. فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة؟ وقد عُلـم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكون جزيئة واحـدة مـن البروتين عن طريق المصادفة خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حيّة بطريق المصادفة؟

٣- تدعي هذه النظرية أن الأحياء قد تطورت من خليـة واحـدة إلى أحياء ذات خلايا متعددة ثم تشعّبت مساراتها في التطور حتى ظهرت الأحياء الحالية التي تبلغ أعدادها عدة ملايين. لذا فحسب هذه النظرية فلابد مـن وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي أن أعداد الحلقات الوسطى يجب أن تزيد بعشرات المرات على عدد الأحياء الموجودة حالياً. أي أن عدد أحياء الحلقات الوسطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسـطى. و لم يصح الزعم القائل بأن طائر "الاركيوتاتريكس" يمثل الحلقة الوسـطى بـين الزواحف والطيور، لأنه تم العثور على متحجرة طائر في نفس العهد الـذي عاش فيه "الاركيوتاتريكس" وهو العهد الجوراس (أو العهد الطباشيري) من قبل البروفسور "جون ارستروم" من جامعة يالا، وكتب مقالة مفصلة عـن هذا الطائر في مجلة الأطبّاء العلمية (المجلد رقم ١١٢ في ٢٤ ايلول/١٩٧٧).

لذا لا يمكن أن يكون طائر "الاركيوتاتريكس" جداً وسلفاً للطيــور بينمــا كانت هناك طيور حقيقية تعيش معه.

كما قدّم التطوريون بعض الجماجم التي تعود لقرود -كانــت تعــيش سابقاً ثم انقرضت- وكأنها الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد. وكل هذه الجماجم مدار شك ونقاش حتى من قبل علماء التطور أنفسهم. ولو كانت نظرية التطور صحيحة لكان المفروض أن نعثر علــى مئــات الآلاف مــن متحجرات الأحياء التي تمثل الحلقات الوسطى الانتقالية بين الأنواع. لأنه تم العثور على مئات الآلاف، بل ربما الملايين من المتحجرات في المائة والخمسين سنة الأخيرة وامتلأت بها المتاحف الطبيعية.

وهذا الفشل الذريع في الحصول على هذه المتحجرات (لأنها غير موجودة أصلاً)، هو الذي دفع بعض علماء التطور إلى البحث عن مخرج من هــذه الورطة الكبيرة التي تهدد بإعدام نظرية التطور، لذا قام هؤلاء (منهم ريتشارد كولــد شميــث Richard Gold Shmidt) بوضــع نظريــة (Hope Full Monsters)، ووضع نظرية Punctuated Equilibrium منهم ستيفن جــاي كولد Stephen Jay Gold و "نيلس الدرج Niles Eldnedge. ومجمل هذه النظريات الأخيرة هو أن التطور حصل فجأة ودون مراحل انتقالية (مــثلاً حدث أن زاحفاً وضع بيضة خرج منها طائرا!!) ولم يستطيعوا أن يقــدموا لهذه الفرضية الخيالية البعيدة عن كل قسطاس علمي أي دليل يمكن أن يكون له وزن... وبهذا دخلت نظرية التطور في طريق مسدود.

٤- وفي السنوات الأخيرة بدأ نقاش حاد بين أنصار التطــور وأنــصار الخلق حول قانون فيزيائي يرى أنصار الخلق أنه ينقض نظرية التطــور مــن أساسها وهو القانون الثاني من "الديناميكية الحرارية".

فهذا القانون يشير إلى أن الكون منذ خلقه يسير نحو الانحــلال ونحــو التدهور ونحو الموت الحراري، فالنجوم تبعث بطاقــة حراريــة وضــوئية

وإشعاعية ووقودها ينفد، ونحن نرى أن كل شيء يترك لحاله ينحل ويفسد... إذا تركنا قطعة لحم أو فاكهة نراها تفسد بعد مدة. وإذا تركت بيتاً أو سيارة لحالها دون عناية وخدمة أسرع إليها البلى... وهكذا. أي لا يوجد هناك شيء يتطور أو يتحسن حاله إذا تركته لحاله و لم تتدخل بعلمك وإرادتك في تحسين وضعه (مثلاً تستطيع القيام ببناء بناية أو صنع آلة، ولكن العملية هنا عملية مقصودة تدخل فيها العلم والإرادة الإنسانية، وليست عملية تلقائية). أي أن الزمن عامل هدم وليس عامل بناء، لأن الأشياء إن تركت لحالها تميل إلى الانحلال والانهدام والتفتت، ولا تتطور ولا يزداد تعقيدها أو درجة نظامها. لذا ففي مثل هذا الكون، وفي ظل هذا القانون الفيزيائي لا يمكن أن يكون هناك تطور تلقائي مستند إلى المصادفات، لأن هذا الكون متوجه للانحلال وليس للتطور.

على أي حال لا نستطيع أن نتناول هنا وفي هذه العجالة نظرية التطور بكل جوانبها وأبعادها، فهذا يحتاج إلى مجلدات ولكننا نقول بأننا سعدنا غاية السعادة عندما رأينا أن عالماً تركياً يتناول نظرية التطور بالشرح والتفنيد، وهذا شيء إيجابي لا نراه عند معظم فقهاء المسلمين وعلمائهم الذين تنحصر مطالعاتهم في مجال الفقه والتفسير والحديث، وقلّما يطلعون على النظريات العلمية، مع أن هذه النظريات تؤثر تأثيراً كبيراً في الفكر وفي الفلسفة وفي جميع مناحي حياة الفرد والمجتمع. وكلما زاد أفق علماء المسلمين ومطالعاتهم ووسعوا من دائرة اهتمامهم بجميع مناحي الحياة والمجتمع زاد تأثيرهم في الفكر وفي المجتمع وأصبحوا أكثر قدرة على الإقناع.

المترجم

اورخان محمد علي

مقدمة المؤلف

تستند محتويات هذا الكتيب إلى بعض مجالس السمر والحوار التي ضمت دائرة ضيقة من الأصدقاء والتي جرت في أواخر الستينات. أما عرض هذه المحتويات على الجمهور بشكل محاضرة فقد كان في السبعينات.

كانت المعلومات والوثائق والمصادر حول هذا الموضوع قليلة في تلك الأيام، بل تكاد تكون معدومة. فإذا أضفت إلى هذا قصوري الشخصي توضحت معالم هذا الكتيب.

لقد كان من رأيي ألا ينشر مثل هذا الكتيب في هذه الأيام التي نشر فيها العديد من الكتب القيمة حول هذا الموضوع بسبب نقص هذا الكتيب وعدم كفايته والذي لم يكتب إلا للاستجابة لحاجة ماسة في السابق. ولكن عندما قام رفاقي في الفكر والدعوة -الذين أحترم آراءهم- بوضع هذا الكتيب الذي هو عبارة عن محاضرات سابقة أمامي بعد شذها وتصحيحها لم أجد بدا من النزول على آرائهم وقبول طبعه.

هذا هو كل ما في الأمر بالنسبة لهذا الكتيب.

محمد فتح الله گولن

مدخل

للوجود وللحياة ولعالم الأحياء ولاسيما الإنسان -الذي يحتل موقعاً متميزاً فيه- نواح متعددة تشكل اساساً لعلوم مختلفة. وحتى لو تناولنا الإنسان وحده في هذا الموضوع رأينا ظهور علوم عديدة كالمورفولوجيا[١] والفيزيولوجيا[٢] وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب وعلم التربية، وعلوم أخرى عديدة. وكل علم من هذه العلوم اختصاص قائم بذاته وله مختصون متفرغون له. ولكن لا يوجد للكون بأجمعه ولا للإنسان ولا للأحياء متخصصون. لذا لم يكن في الإمكان حل المشكلات المتعلقة بالوجود وبالإنسان بهذه العلوم، أو قول الشيء النهائي والأمر الفصل فيها. لذا كانت هناك حاجة ماسة لمراكز متكاملة تستطيع تصنيف معلومات وأفكار لفهم الإنسان، وإنتاج التكنولوجيا ووضع النظريات والأفكار العامة التي تخاطب الشعور الجمعي وتكون في مستوى العصر وقادرة على احتضان جميع أموره وفتح الآفاق أمامه. وأنا أتوقع أن العديد من الكتب ستؤلف في هذا الخصوص في السنوات القادمة، وستطرح العديد من الأفكار البديلة في هذا الخصوص، كما ستشارك العديد من المراكز العلمية في هذا الأمر لتغذي وجهة النظر هذه وتثريها. وسيقوم آنذاك عدد من المفكرين ومن العلماء المحظوظين بكتابة قصة الوجود من جديد، وسيكتشفون كل شيء وكل

---

(١) مورفولوجيا Morphology: علم الشكل: فرع من علم الأحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبنيتهما. (المترجم)

(٢) فيزيولوجيا Phyisiology : علم يتناول دراسة وظائف الأعضاء. (المترجم)

الأحياء -ولا سيما الإنسان- من جديد، ليضعوا الحقائق حول مدى سعة عالم الإنسان أمام الأنظار، وليشرحوا بشكل واضح المواضيع التي تشكل قواعد العلم وأسسه.

وعلاوة على هذا نستطيع اليوم أن نقول بأن المختبرات الحديثة تقوم اليوم بفحص الأحياء بدقة غير مسبوقة. حتى أن المادة والجزيئة والخلية أصبحت معلومة بمقياس كبير، وبدت السوائل وجميع أجزاء الخلية حتى أصغرها وأدقها معروضة أمام الأنظار بفضل الأشعة السينية (أشعة أكس). كما قامت بعض المختبرات الحديثة وبعض مراكز البحوث بإلقاء الضوء ليس على التركيب المادي فقط لجزيئات البروتين بل على طبيعة الأواصر التي تربط هذه الجزيئات الكبيرة بعضها ببعض وطبيعة عمل الأنزيمات التي تفرق وتركب هذه الجزيئات وتأثيرها، وكذلك القوانين السارية في الخلايا والروابط التي تربط الأنسجة التي تشكلها هذه الخلايا مع الأعضاء الداخلية، وطبيعة السوائل في الجسم كالدم والصفراء وعلاقاتها مع بيئتها، وكذلك تأثير المواد الكيمياوية على الجسم وعلى الشعور... كل هذه الأمور أصبحت معلومة ولو نسبياً.

ولكن على الرغم من هذا التقدم الذي يستحق كل تقدير في ساحة العلم، فإن من غير الممكن القول بوجود مثل هذا التقدم في ساحة العلم أو في المراكز العلمية في تركيا أو في أي ساحة أخرى منذ عهد التنظيمات حتى الآن. فبدلاً من البحث العلمي نرى تقليداً أعمى، وبدلاً من التدقيق العلمي نرى أننا في عهد من شعارات رخيصة مرفوعة تأخذ مكان العلم. ولا شك أن الأجيال القادمة ستذكر عهدنا هذا بكثير من الأسف. ذلك لأن الوجود قُدِّم في هذا العهد وكأنه عبارة عن وسط من الفوضى، وكأن الأشياء لعبة بيد الصدف العمياء تطوح بها ذات اليمين وذات الشمال، وكأن الأحياء لقمة بسيطة وسائغة بين الأسنان الوحشية للـ"الانتخاب الطبيعي". أما

الإنسان فقد هوي بمكانته وجُعل في مقعد متفرج نكد الحظ يتفرج على حلبة الموت، وحكم عليه أن يرى ويسمع ويعيش ما يجري أمامه. بينما لو تم النظر من زاوية أخرى لكان في الإمكان مشاهدة حقيقة وجود تساند وتعاون في كل جزء من أجزاء هذا الكون، ووجود نظام وتناغم دقيق فيه، ولظهر أن كل شيء قد خطط لهدف معين، ولغاية محددة، وأن كل شيء مرتب ككتاب وكمعرض رائع وكامل يذهل العقول.

ولسنا هنا في معرض محاكمة النظرة الحالية الخاطئة ولا التحري عن أسبابها. ولكن من المفيد التأكيد على بعض الأمور: أولاً إن الوسط العلمي عندنا في عهد معين قد جُرَّ إلى وسط من الفوضى، ورُبط بمحور معين بحيث إن العديد من مراكز البحوث العلمية والمختبرات انجرّت دائماً وراء سؤال: "كيف؟" و لم يلتفت الباحثون[1] إلى أسئلة من نوع: "لماذا؟" وأنشأ نظام التعليم أجيالاً لا تفكر إلا في الإجابة على "كيف؟" ولا تفكر في الإجابة على "لماذا؟" أو "من؟". لذا فلم يظهر من هذه الأجيال أي مفكر أو عالم على المستوى العالمي طوال هذه العهود.

أجل!.. كم عالم استطعنا تنشئتهم لكي يستطيعوا اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين؟ فمثلاً كم منهم وجد في نفسه الشجاعة لكي يوضح خطأ نظرية دارون ونقصها وجوانبها المشوهة، وأنها -مثلها مثل النظريات الأخرى- يمكن مناقشتها؟ وكم منهم استطاع تجديد فكرة أن الإنسان هو أشرف المخلوقات؟ تجديد هذه الفكرة وتطويرها... مثلاً الإشارة إلى أن الإنسان بالإضافة إلى أنه يملك أجهزة مادية كالعين والمخ والأنف والأذن وأجهزة الدورة الدموية وأجهزة الإفراغ (البول والبراز)، فهو يملك السمع والبصر والحس ووسائل اتصالات مختلفة مع الوجود، ويملك شوقاً لمعرفة ما وراء أستار هذا العالم... من أشار إلى هذا واستطاع أن يضع الإنسان في

---

(١) استعملتُ كلمة: "الباحثون"، و لم أستعمل كلمة "العالمون" عن قصد. (المترجم)

إطاره الحقيقي؟ وعلاوة على عدم إنجاز هذا فقد تم وضع العلم كصنم معبود تجاه الدين، وضُحِّي به على مذبح النظرة الأيدولوجية، فلم يستطع الخروج عن الإطار الضيق للفلسفة الوضعية للقرن التاسع عشر.

والذي يدعو إلى الأسف والأسى أنه نتيجة لكل هذا فقد أقيم علم الأحياء (البيولوجيا) على نظريات خيالية لم تتم البرهنة عليها، وعلى رأس هذه النظريات الخيالية تأتي نظرية التطور دون شك. صحيح أن تناول نظرية التطور والحديث والكتابة حولها ليس من عمل شخص مثلي له مجال مختلف. ولكن حتى يجتمع مختص بالجينات ومختص بالكيمياء الحياتية (بيوكيمياء) ومختص بالبالنتولوجيا[1] مع عالم الإلهيات يتناول الموضوع من الناحية الدينية كمختصّين يوضحون هذا الموضوع على الساحة التركية، بل وعلى الساحة العالمية إن كانت هناك حاجة. الموضوع الذي يدور حلو النقاش في المحافل العلمية منذ مدة طويلة وحتى يُظهروا الحقيقة كاملة... إلى ذلك الحين يكون من حقي ومن حق أمثالي تناول هذا الموضوع بإسم الحق. لقد أصبح الكثيرون يدافعون عن هذا الموضوع ليس باسم العلم بل باسم الأيدولوجية، حتى كاد يصبح مجرد مناقشته ذنبا وجريمة.

من جهة أخرى فإننا إن وضعنا جانبا التساؤل حول وجود أو عدم وجود علماء دين عندنا يستطيعون تناول هذا الموضوع ومناقشته، فإن التربية والتعليم الديني عندنا لم يحقق بعد الحلم الذي ساور العديدين منذ قرن تقريبا، و لم يصل إلى المستوى اللائق و لم يشمل دراسة العلوم الوضعية أو في الأقل دراسة مبادئها الأساسية. وهذه حقيقة مؤسفة ومحزنة تقف عقبة أمامنا. لذا ففي مثل هذا الوضع فإن معظم المسائل التي سأتناولها هنا مع كونها خارجة عن ساحتي، إلا أنني أرى أن من واجبي تدقيق هذه المسألة -

---

(١) البالنتولوجيا Paleontology: علم المتحجرات، يبحث في أشكال الحياة للأحياء من النباتات والحيوانات في العهود الجيولوجية الماضية. (المترجم)

التي أصبحت تقف مثل جدار عال حائلاً أمام الإيمان- على قدر طاقتي. علماً بأنني أدرك جيداً مدى صعوبة حمل هذه المسؤولية وعظمها. والحقيقة أن الذي قادني لهذا الأمر -الذي أرجو من المختصين فيه الموضوع أن يسامحوني- ليس هو إلا هو بعث الهمة والعزم عند المختصين. فكم أتمنى أن يقوموا بحمل هذا العبء وإيضاح هذا الموضوع بكل جوانبه وبكل أعماقه واظهار الحقيقة كاملة للأجيال التي داهمت الشكوك أذهانها وأفكارها واغتيل إيمانها منذ ما يزيد على قرن كامل.

ودعوني أعترف فأقول بأنني كنت أفضل -بدلاً من التعامل مع هذا الموضوع وبذل الجهد فيه- أن أقوم بشرح الدساتير الإسلامية الأساسية التي سكنت قلبي وأنارته على الدوام، وبيان الأوصاف التي يجب أن يتحلى بها الجيل الذي سينقذ الإنسانية. لأنني أعتقد أن من الأفضل الكتابة حول الأمور الإيجابية لكونها تثير في قلوب المؤمنين انفعالاً أكثر. والذي يحيرني ويزيدني عجباً وأسفاً بعض التصريحات والبيانات التي تتناقض مع معاني العديد من الآيات القرآنية المحكمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها حول موضوع الخلق والتي نسمعها من العديد من الناس... من المثقفين ومن غير المثقفين... من خريجي الجامعات وممن هم خارج الجامعات... بل حتى من بعض علماء الدين الذين يحاولون بتأويل بعيد إقامة صلة بين نظرية التطور لدارون وبين معاني الآيات القرآنية ومعاني الأحاديث الشريفة.

قبل قرن من الزمان طرح سؤال على العلامة حسين الجسر[١] -الذي أكنّ له احتراماً كبيراً- حول هذا الموضوع فأجاب:

---

(١) العلامة حسين الجسر: هو جد المفتي الأسبق في لبنان المرحوم نديم الجسر صاحب الكتاب المشهور "قصة الإيمان". وقد تناول العلامة حسين الجسر موضوع نظرية التطور في كتابه المشهور "الرسالة الحميدية". وسمي كذلك لأنه ألفه وأهداه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتناول الرد على شبهات الملحدين، وهو كتاب نفيس وحاز على اعجاب السلطان والعلماء. (المترجم)

"إن هذه المسألة لا تزال في طور النظرية. ولكن إن تمت البرهنة عليها في المستقبل، فإننا سنقوم آنذاك بتوفيقها مع الآيات القرآنية".[1]

ومهما كان احترامي كبيراً لهذا العلامة الكبير فإنني لا أستطيع أن أوافقه هنا ولا أن أوافق من يفكرون مثله. لأنه من المستحيل التوفيق بين أفكار داروِن ونظرية التطور مع الآيات القرآنية أبداً، لأن داروِن يقول بأن الحياة نشأت بالمصادفات العشوائية نتيجة عدة عوامل. بينما الإحياء والإماتة فعلان خاصان بالله تعالى. وحتى لو كان في الإمكان البحث عن أسباب مادية لبدايات هذين الفعلين، فإن النتيجة -ولا سيما في موضوع نفخ الحياة- هي فوق جميع الأسباب تماماً. فنفخ الحياة إجراء مباشر دون حجاب وإلهي محض غير متعلق بأي سبب. وبما أنه لا يمكن تفسير الحياة بأي سبب مادي، لذا كان من غير الممكن أن تتجاوز الداروينية مرحلة النظرية، كما كان من المستحيل التأليف بينها وبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وهذا هو أحد أسباب قيامي بتناول هذه النظرية.

نظرية التطور لا يمكن حصرها بـ"داروِن" ولا بـ"لامارك". فهي من جهة أقدم منهما وطرحت قبلهما بعدة عصور، ومن جهة أخرى فهناك أنصار لـ"الداروينية الحديثة" في عصرنا حيث طرحوا نظريات جديدة في تأييد وتقوية نظرية داروِن. وعندما تفشل نظرية من هذه النظريات يأتون بأخرى. ومع الأسف فإن هذه النظريات -التي لم يتم إثباتها ولا يمكن إثباتها- تدرس في جميع المدارس المتوسطة والثانوية وحتى الصفوف الأخيرة في الجامعات، وفي جميع المؤسسات التعليمية والتربوية والعلمية وكأنها حقائق علمية. وهنا أتمنى من المولى تعالى -وإن لم يكن هذا متعلقاً بموضوعنا مباشرة- أن يوفق الأجيال السعيدة القادمة لشرح جميع جوانب هذا

(١) انظر: قصة الإيمان لنديم الجسر، ص ٢٠٤-٢١٥.

الموضوع -والمواضيع الأخرى كذلك- ولا تـــشغل المـــدارس بنظريـــات يستحيل البرهنة عليها.

وفي القرن العشرين تمت محاولة نقل نظرية التطور إلى المختبرات في محاولة لإثباتها بـــ "الطفرات Mutations". لذا سنقوم بتناول هـــذا الموضـــوع في إطار بحث الداروينية، والداروينية الجديدة، والآيـــات القرآنيـــة المحكمـــة والأحاديث النبوية الصحيحة (على صاحبها ألف صلاة وســـلام) الـــتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها والتي تناولت مسألة الخلق.

نظرية النشوء والارتقاء (نظرية التطور)

نطلق صفة التطور أو التكامل على كل اتجاه من البسيط إلى المركب، ومن الفوضى إلى النظام. وقد تم إطلاق اسم "الداروينية" أولاً على النظرية التي كانت تبحث عن منشأ وتكوين الأحياء. ثم أطلق عليها اسم "التطور Evolotion" وهي كلمة لاتينية الأصل تعني شيئاً أو جسماً له طبقات متعددة، وتنفتح كل طبقة بشكل متعاقب الواحدة منها إثر الأخرى، وفتح أستاره للنفوذ إلى داخله. وفي الاستعمال اليومي لكلمة "التطور" نلاحظ أنه علاوة على ضمها لمعاني التكامل التدريجي والارتقاء والنضج، فهي لا تشير فقط إلى الداروينية، بل تستعمل أيضاً للتعبير عن التغيرات الحاصلة في الأحياء نتيجة للطفرات والتغيرات والاستحالات. أي أننا نعني بالتطور جميع الأفكار والطروحات الداروينية القديمة منها والحديثة.

كان هناك في الحقيقة من طرح ادعاءات مشابهة لهذا قبل دارون، منهم "كانط" و"باكون" و"هيجل" حسب رأي البعض. بل إن بعضهم أدرج مع الأسف العالم والشاعر المتصوف "إبراهيم حقي" (الوفاة ١٧٨٠م) ضمن هؤلاء. بينما ذكر هذا العالم المتصوف أن الإنسان يحتل الذروة بين الأحياء. وهو يعتقد أن هناك مراحل تنقية واصطفاء واستحالة بين المخلوقات التي خلقها الله تعالى من العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب)، وأن المعادن هي المرحلة الأولى ثم تأتي بعدها النباتات ثم الحيوانات ثم الإنسان، وأن هناك بين كل مرحلتين مرحلة وسطى، وأن المرحلة الوسطى بين

الإنسان والحيوان هي القرود التي هي أكثر الحيوانات قرباً وشبهاً بالإنسان. وفي الطبعة القديمة من كتابه "معرفت نامة" (ص ١٩) يتكلم عن مثل هذه المراحل التكاملية، ولكنه بعد صفحتين يدخل في موضوع الخلق المباشر مستنداً إلى المعاني الظاهرة في هذا الخصوص والواردة في الآيات القرآنية وفي الأحاديث الشريفة وليس إلى أي نظرية أو أي ادعاء آخر، فيقول: إن الله جل جلاله انتقى آدم من الطين اللازب للأرض وهيأه (أي عمل خليطاً ومعجوناً من حساء بروتيني) ثم خلق الإنسان منه.

وقد يبدو أن هناك فرقاً بين هذين الطرحين وتناقضاً عند هذا العالم في هذا الموضوع، ولكن لا يوجد في الحقيقة أي فرق أو أي تناقض، ذلك لأنه كان يعني في طرحه الأوّل ما ذكره بعض من عاشوا قبله بعدة قرون (من أمثال ابن تركي الاصفهاني) وما ذكره بعض المتصوفة وهو التكامل الحاصل في العقل والروح. أي أن الموجودات على سطح الأرض تعرض تدرجاً من ناحية الملكات العقلية والقلبية. وهو تقويم يشترك فيه الحكماء المسلمون، وحسب هذا التقويم فهناك تنازل قوسي من السماء حتى الأرض (أي خط بياني تنازلي)، وفي الأرض هناك قوس تصاعدي يبدأ من الجماد إلى النبات والحيوان حتى ينتهي بالإنسان. أي كان من المستحيل أن يطرح أحد قبل ثلاثة قرون أو خمسة أو عشرة قرون نظرية تطورية تستند إلى الكروموزومات والجينات والطفرات. لذا فإن ما جاء في ص ١٩ من كتاب إبراهيم حقي هو إشارة وتقويم للتكامل العقلي- الروحي عند الموجودات، لذا نراه عندما يتحدث عن عملية الخلق بعد صفحتين يشير صراحة وبوضوح إلى تفوق الإنسان وسموه ويقول: "لقد أوجد الله تعالى من نوره جوهراً عظيماً وأنشأ منه الكون بأجمعه، وأظهره مرتباً ومتدرجاً، ويطلق على هذا الجوهر الجوهر الأولي أو النور المحمدي أو اللوح المحفوظ أو العقل الكلي أو العقل النسبي".

إن اعتبار ما قاله العالم إبراهيم حقي حول حقيقة تكامل الوجود وحول ما ذكره حول الروح والمادة، كل على حدة، وتصور وجود علاقة لما ذكره في هذا الخصوص مع نظرية التطور البيولوجي التي طرحت بعده بعد نصف قرن من قبل لامارك وداروِن سيؤلم روح هذا الولي الكبير. وعلى الرغم من هذه الحقيقة نرى أن بعضهم -غفر الله لهم- وعلى رأسهم جمال الدين سَرْوَرْ رَوْنَاقْ أوغْلو وضِيَاء الدين فَخْري فِنْدِقْ أوغلو، وجَوَاد دُورْصُون أوغْلوّ الأرضرومي المشهور يدعون أن هذا الولي الكبير قال بنظرية التطور البيولوجي، وكان من دعاتها وأنصارها.

وعلى الرغم من الآراء المختلفة -التي ذكرنا بعضا منها- فلم يكن هناك من طرح فكرة التطور البيولوجي قبل داروِن أو نظرية الاستحالة (Transformation) قبل داروِن سوى العالم الفرنسي "لامارك"، فقد نشر كتابه (فلسفة علم الحيوان) الذي شرح فيه نظريته في التطور في سنة ميلاد داروِن (١٨٠٩م). واشتهر هذا الكتاب عندما بلغ داروِن سن القراءة.

يمكن ذكر ثلاثة عوامل ساقت داروِن لطرح نظريته المعروفة. الأوّل هو قيام القس الانكليزي "مالتوس" بنشر رسالته في إنكلترة في عهد كان فيه الفقر سائداً. كان مالتوس يرى أن زيادة السكان يُعدُّ عاملاً من عوامل الفقر، وكان يعارض القانون الحكومي الذي كان يقضي بقيام الحكومة بمساعدة الفقراء من خزينة الدولة. وقام بنشر كتابه (تجربة حول السكان) عام ١٧٩٨م ذكر فيه أن السكان على سطح الأرض يتزايدون بنسبة هندسية، بينما لا تتزايد مصادر الغذاء إلا بنسبة عددية،[1] وذلك بسبب محدودية الأراضي القابلة للزراعة، وأنه لولا وقوع أنواع عديدة من الكوارث الطبيعية كالسيول والآفات والأمراض المعدية لما كان بالإمكان توفير الغذاء

(١) الزيادة الهندسية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، س٢ ، س٣، س٤، س٥ ...الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤... إلخ) الزيادة العددية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، ٢س، ٣س، ٤س، ٥س...الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢...الخ) هنا س= ٢ . (المترجم)

للسكان المتزايدين. وكان "مالتوس" يدعو الحكومة -حسب فكرته هذه- إلى إلغاء قانون مساعدة الفقراء. أما دارون فقد استخرج من نظرية مالتوس -التي قدمت لغاية اقتصادية صرفة- نتائج علمية، حيث استند إليها -كما سنرى فيما بعد- في وضع نظريته في الانتخاب الطبيعي (Natural selection).

والعامل المؤثر الثاني على دارون كان كتاب (حول القانون الذي ينظم ظهور الأنواع الجديدة) لمؤلفه "ألفريد رسل والاس" الذي كان يقوم بأبحاثه في شواطئ أمريكا الجنوبية وفي جزر ملايا في المحيط الأطلسي. وفي الرسالة الطويلة جداً -والتي كانت بمثابة كتاب- التي بعثها والاس إلى دارون أشار إلى أن المخلوقات التي تبدي تكيفاً مع بيئتها هي التي تستطيع إدامة حياتها، أي كان يشير إلى وجود صراع بين الأحياء في الطبيعة. وعندما طرح دارون نظريته المعروفة كان يستند إلى مثل هذه الطروحات.

والعامل الثالث المهم الذي أثّر على دارون كان بعض العلماء السابقين الذين تناولوا هذا الموضوع وذكروا حوله آراءهم مهما كانت قيمة تلك الآراء، منهم "لامارك" الذي يقول عنه السيد "عدنان آدي وار" (كان شخصاً بسيطاً وكحاطب ليل يجمع بعض المسائل بسرعة ودون تمحيص وبشكل لا يليق بحرمة العلم). بينما يقال أن دارون كان يجمع الآراء والأفكار من مختلف المصادر ويرتبها بشكل أكثر حيوية وأكثر قرباً من الطريقة العلمية. غير أنه سيتبين مما سنذكره فيما بعد من بعض الحقائق بأن جميع ادعاءات دارون وطريقة جمعه المعلومات وتصنيفها وتقديمها بعيدة عن الطريقة العلمية بفراسخ عديدة.

الأسس الأربعة الرئيسية التي تستند إليها "الداروينية"

على ضوء بعض أوجه التشابه الموجودة بين المخلوقات وفي ضوء التأثيرات التي تلقاها من العلماء قام داروين بتاسيس نظريته على هذه الأسس الأربعة الرئيسية:

تقوم الظروف الخارجية، وأحياناً التأثيرات الداخلية بإجراء تأثير على الكائنات الحية، حيث تؤدي هذه التأثيرات إلى تغييرات كبيرة أو صغيرة فيها.

تلعب هذه التغيرات بدرجة ما دوراً مفيداً للأحياء بشكل أو آخر.

تنتقل هذه التغيرات الطفيفة عن طريق الوراثة إلى الأجيال والأنسال القادمة.

الانتخاب الطبيعي: نتيجة لشحة الغذاء بسبب التزايد السكاني فإن الأحياء تضطر للتصارع فيما بينها. وحياة الأحياء عبارة عن هذا الصراع. والطرف القوي في هذا الصراع هو الذي يبقى ويستمر في الحياة، أما الضعفاء والمغلوبون فمصيرهم هو الزوال حتماً.[1] كما أن المصائب والبلايا ستبيد الضعفاء وعديمي المقاومة، فلا يبقى على وجه الأرض سوى الأنواع

(١) المقصود بالقوة في الأحياء -حسب نظرية التطور- ليست القوة الجسدية، بل درجة تكيف أي حي من الأحياء للظروف التي يعيش فيها ذلك الحي، فمثلاً إن البعوض أكثر الأحياء تكيفاً وتلاؤماً لبيئة المستنقعات من العديد من الأحياء الأقوى منها. (المترجم)

القوية. وتستند هذه الفكرة إلى الرأي الاقتصادي لمالتوس والذي لخصناه قبل قليل. والآن لنأخذ هذه الأسس الأربعة للداروينية ونناقشها بالتفصيل:

١- دعوى التطور، والتشابه الموجود بين الأحياء

تنطلق الداروينية من المشابهة والتشابه الموجود في الطبيعة. فهي ترى أن بعض الأعضاء الضامرة الموجودة في بعض الأحياء الراقية هي آثار عن أسلاف بدائية كانت مفيدة لها، ولكنها أصبحت دون فائدة بعد قطع هذه الأحياء لمراحل تطورية معينة، ولكون هذه الأعضاء لا تفيد في هذه المرحلة الجديدة من التطور لذلك الكائن لذا بقيت كأعضاء ضامرة وأثرية. فمثلاً يقول دارون إن وجود الشعر في جسم الإنسان دليل على أنه ورث هذا الشعر من الشعر الموجود في أجساد الثدييات، وفي أثناء المراحل التطورية التي مر منها الإنسان تساقط القسم الأكبر من هذا الشعر ولم يبق إلا في مناطق معينة... فلماذا؟

مثل هذه الادعاءات لدارون لا تستند إلى برهان حقيقي. لأن وجود الوجه والعين والأذن في الإنسان لا يشكل دليلاً على أنه تطور من القرد. كما لا يشكل وجود هذه الأعضاء في بعض الأحياء دليلاً على أن بعضها قد تطور من بعض. لأن هناك تشابهاً كثيراً بين العديد من الكائنات الحية في العالم. لأن جميع هذه الكائنات الحية تستند إلى عناصر رئيسية أربعة هي: النتروجين، الكاربون، الأوكسجين، والهيدروجين. كما أن الإنسان والحيوان يتغذون أغذية مشتركة. والإنسان خاصة يتغذى من الأغذية نفسها، ومع ذلك فإن جميع أنواع الموجودات، وكذلك أفراد الإنسان يبدون في نواح عديدة فروقاً كبيرة فيما بينهم.

إن التشابه في المظهر الخارجي أو في البنية الداخلية لا توجب تطور الأحياء بعضها من بعض. وعلى الرغم من النشأة المشتركة، فإن الفروق الموجودة بين

الكائنات تُظهر أن الغاية من الخلق ووظيفة ذلك الكائن وموقعه يأتي في المقدمة، وأن البنية المادية تنظم على هذا الأساس. فلا يمكن بناء بناية عشوائية أو بناية جميلة ثم تعطى لها فيما بعد وظيفة ما. ولا يمكن تشكل الكلمات في الذهن أو كتابة كتاب قبل وجود فكرة أو معنى في الذهن. يتكون كل بناء تقريباً من المواد البنائية نفسها. لذا فهناك تشابه كبير بين الأبنية، ولكن أي بناية ليست مثل بناية أخرى تماماً.

إن الأحرف التي تشكل الكلمات واللغات هي نفسها، ولكن كل كلام يتم التعبير عنه بتلك الإشارات والأحرف المحدودة في أعدادها. ولو كانت هناك كلمة من سبعة أحرف فإنها تختلف تماماً مع كلمات أخرى تتشابه معها في ستة أحرف، لأن اختلاف حرف واحد يبدل المعنى ويجعلها مختلفة عن الكلمات الأخرى. كما أن هناك احتمال وجود سبع كلمات مختلفات لها سبعة أحرف... ووجود ستة أحرف مشتركة بين هذه الكلمات لا يدل على أنها مشتقة من جذر واحد. لأن المعنى هو الذي يحدد ماهية كل كلمة ويحدد حروفها. ونظير هذا فإن الوظائف المتشابهة تقتضي عند الكائنات أعضاء وتراكيب متشابهة. وعلى الرغم من وجود بعض الشبه في عالم الأحياء، وعلى الرغم من استعمال مواد البناء واللبنات نفسها نرى وجود اختلافات لانهائية فيه.

ولو قمنا بالتعبير عن الأمر بصورة عكسية لقلنا بأن تشابه مواد البناء واللبنات الأساسية في الأحياء على الرغم من وجود اختلافات لا نهائية يدل على وجود قصد وإرادة ومعنى معين. لذا فكما تتراص الكلمات حسب معنى معين، كذلك تُخلق الأحياء حسب الوظائف التي ستكلف بها، وتعطى لها الأعضاء والتراكيب المناسبة. لذا فالتشابه الموجود بين الأحياء لا يشير إلى التطور، بل يشير إلى العكس.

ثانياً إن هناك أعداداً غير محدودة من الكائنات ومئات الآلاف من

الأنواع على سطح الأرض[1] ولو كان لكل نوع وجه خاص وأعضاء مختلفة، ولو كان لكل نوع بنية مختلفة وجسد مختلف لكان من الضروري وجود أنواع لانهائية من الأعضاء ومن التراكيب والبنى. ولو تناولنا الأمر على مستوى الإنسان لكان من الضروري أن يكون لكل فرد تركيب وبنية مختلفة وشكل مختلف لأن الإنسان يشكل نوعاً فريداً في عالم الكائنات. ولا شك أن الله تعالى له القدرة على إعطاء شكل مختلف وبنية مختلفة لكل نوع. ولكن كان من الصعب في هذه الحالة تحقق التقارب والتفاهم والتعاون في عالم الأحياء وفي عالم الإنسان، ولأصبح كل نوع غريباً عن الأنواع الأخرى... أي لكان هناك عالم لا يطاق فيه العيش.

ثم إن كل شيء مشابه أو كل شيئين متشابهين ليس معناه العينية. فمثلاً هناك أنواع عديدة من السوائل، ولكن ماء الورد يختلف عن حامض الهيدروكلوريك، وحتى في الاستعمال نرى أن أحدهما يجلب الراحة، والآخر يحرق. وكذلك نرى أن الشمس والكهرباء والشمعة والخشب المحترق يعطي كل منه الضوء، ولكن لا يمكن إرجاع الجميع إلى مصدر واحد. لذا فوجود عضو واحد في الإنسان، أو عدة أعضاء مشابهة لما هو موجود في الحيوانات، بل حتى وجود أوجه تشابه عديدة بين الإنسان وبين الحيوان لا يشير ولا يبرهن على وجود تطور بين النوعين. لأن كل موجود قد أعطيت له الأعضاء المناسبة لتحقيق وظيفته في الحياة. علماً بأنه قد تبين اليوم بأن العديد من الأعضاء -التي عدت في السابق أعضاء ضامرة ولا فائدة منها ولا وظيفة لها- لها وظائف مهمة.

بجانب هذا فقد تكون هناك في الطبيعة أشياء تبدو وكأنها غير مناسبة للبيئة ولبنية البيئة العامة وتركيبها، بل هي موجودة فعلاً. ولكن يمكن

---

(١) لم يكمل بعد الفرز النهائي للأحياء، ولكن ما تم منه حتى الآن يظهر أن عدد أنواع النباتات والحيوانات بلغ عدة ملايين. (المترجم)

البحث عن المعاني التي تشير إليها من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نعرف بعد طبيعة بنية البيئة حق المعرفة، و لم نحل جميع ألغازها. أحياناً بوضع شيء في مكان غير مناسب، كعنصر من عناصر الديكور والجمال فيجلب الأنظار إليه. فإن أثار هذا الاهتمام، وقام الإنسان -استنادا إلى هذا- بإصدار حكم حول البنية العامة فإنه ينخدع تماماً. وهذه النقطة نقطة امتحان زلّت فيها كثير من الأقدام.

فإن كان هناك قصر له ألف باب اثنان منها مغلقان، فمن الخطأ الحكم بأن جميع أبواب ذلك القصر مغلقة. وكذلك لو كانت هناك شجرة لها جذور حية وقوية وجذع متين وأغصان وأوراق وثمار في تمام العافية والنضج، فإن من الخطأ الفاحش القول بأن هذه الشجرة شجرة ميتة وغير صالحة لمجرد وجود ثمرتين عفنتين على غصن منها. كذلك فإن التوصل إلى استنتاج بوجود تطور بين الأنواع من مجرد وجود عضو أو عضوين ضامرين، (وبالتالي الظن بأنهما غير مفيدين) خطأ بنفس الدرجة وتصرف غير علمي.

لقد زعم دارون -انطلاقاً من وجود التشابه- إلى أن وجود بعض الأمراض التي تصيب الإنسان تصيب الحيوانات أيضاً مما يشكل حسب رأيه دليلاً آخر في هذا الصدد (أي في وجود قرابة بين الإنسان والحيوان). ولا يسعنا هنا سوى ذكر ما سبق أن ذكرناه في هذا الأمر.

فالأمراض المكتشفة تبلغ العشرات، بل المئات إن أخذنا بنظر الاعتبار الأمراض الثانوية المتشعبة عن الرئيسية. ولو كانت هناك أمراض متعددة لكل نوع من الأنواع لكان من المفروض وجود عدد لا يعد ولا يحصى من الأمراض. ثم إن وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والحيوان شيء طبيعي جداً ومتوقع طالما أن بنية الإنسان والحيوان مؤلفة في الأغلب من لبنات متشابهة وتؤدي مهمات متشابهة، لذا فلا يشكل هذا الأمر دليلاً له أي قيمة

في أن الإنسان متطور من الحيوان. علما بأن معظم الأمراض التي تصيب الإنسان ليست هي نفس الأمراض تماماً التي تصيب القرود. على العكس من هذا تماماً فبعض هذه الأمراض تظهر في أنواع أخرى من الحيوانات، فمثلاً يظهر مرض (amfizem) المزمن عند الخيول، ومرض سرطان الدم في القطط والثيران، ومرض العضلات (ditrofisi) في الدجاج والفئران، وتصلب الشرايين في الخنازير والحمام، ومرض سوء التخثر ومرض التهاب الكلية في الكلاب، ومرض قرحة المعدة في الخنازير، ومرض (anevrizma) في الديك الرومي، وحصاة الصفراء في الأرانب، والتهاب الكبد في الكلاب والخيول، وحصاة الكلية في الكلاب والثيران، ويظهر مرض السُّد (إعتام العين cataract) في الكلاب والفئران. وفي الطيور والدجاج أيضا.

فهل نستطيع انطلاقاً من هذا الادعاء أن نقول بأنّ أصل الإنسان فأر، أو أنه تطور من الكلاب؟ أو أنه ترقى من الثيران؟ إن من الطبيعي أن يصيب الإنسان والحيوان النوع نفسه من الفيروس والبكتريا، ولا يدل هذا على كون منشأ الإنسان والحيوان واحداً. وهناك أمراض تصيب الإنسان كما تصيب الطيور والدجاج التي تعد من الناحية البيولوجية بعيدة جداً عن الإنسان. فإن أرجعنا الإنسان -بواسطة هذه الأمراض- إلى الدجاج فسيكون هذا ابتعاداً عن النظرة الداروينية. لأن دارون ربط الموضوع بالتطور ووضع القرد بين أنواع الحيوان والإنسان.

٢- التكيف ومسألة الأعضاء المستعملة وغير المستعملة

بعد أن أوضحنا بأن مسألة التشابه -التي هي من منطلقات دارون- لا يمكن أن تكون أساساً للتطور، علينا أن نبين بأن أساساً آخر من أسس الداروينية وهو زعمهم بأن الأعضاء غير المستعملة ستضمر بمرور الزمن، وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسالها

حسب نظرية لامارك... فلقد تبين بان هذا الزعم لا يملك أي مصداقية. صحيح أننا نرى أن بعض الأعضاء ولاسيما العضلات عندما تستعمل كثيراً تتضخم. ورافع الأثقال تتضخم عضلات ساعده وتنمو بشكل جيد. ولكن ابن حامل الأثقال لا يأتي إلى الدنيا بعضلات ضخمة. ولكي يملك مثل هذه العضلات عليه أن يتمرن على رفع الأثقال. ونظير هذا المثال نجد أن اليهود يُختتون منذ أربعة آلاف سنة. وعلى الرغم من مضي كل هذه السنوات الطويلة فلا يولد طفل يهودي وهو مختون. كما أن المسلمين يُختتنون منذ ١٤ قرناً، ومع هذا لم نر من ولد مختوناً. لذا فإن قبول انتقال الصفات التي يكتسبها جيل من الأحياء إلى ذرياتها عن طريق الوراثة، واعتبار هذا الأمر قضية مسلماً بها لا يتلاءم مع العلم ولا مع الكرامة العلمية.

ومثيل هذا خرافة أخرى وهي أن الأعضاء غير المستعملة تضمر بمضي الوقت، وتنتقل ضامرة إلى الأجيال القادمة، أما الأعضاء المستعملة فتقوى وتتطور. وقد ادعى "لامارك" بأن عنق الزرافة أصبحت طويلة أكثر من الاعتيادي، لأنها كانت تضطر لمد أعناقها لأكل أوراق الأشجار العالية، وأنها شعرت بضرورة كون أعناقها طويلة. فأي حيوان لا يرغب في أكل الأوراق الموجودة في أعلى أغصان الأشجار؟ ولماذا طال عنق الزرافة و لم تطل أعناق الحيوانات الأخرى؟ من المعروف أن العنز تتغذى من أغصان الأشجار وأوراقها على الدوام إلى درجة أنها تعد من أعداء الغابات. ولكن لكون أعناقها لم تطل فهي مضطرة على الدوام لبذل جهد كبير لتسلق الأشجار. ألم تكن الثعابين ترغب في أن تكون لها أرجل تمشي عليها بدلاً من صعوبة الزحف بين الأتربة والصخور؟ ويدعي دارون أن أرجل الثعابين ضمرت بمرور الوقت. وهنا يوجد تناقض واضح لكل عين. فلو كان هناك تطور في عالم الأحياء لكان من المفروض أن تتطور الثعابين من أحياء كالدود إلى أحياء تملك أرجلاً طويلة متكاملة ومتطورة. فمن جهة يقولون بأن الثعابين كانت تستعمل أرجلها في عهد من العهود، ثم لم تعد تستعمل هذه الأرجل فضمرت. بينما

لو كانت الثعابين قد ظهرت وهي تملك أرجلاً -كالخيول مثلاً- لاستعملت هذه الأرجل طبعاً. إذن لماذا لم تستعمل هذه الأرجل وانقلبت إلى زاحف؟!. فمن جهة يدّعون بأن الثعابين لم تستعمل أرجلها مما أدى إلى ضمورها، ومن جهة أخرى يدعون أن أعناقها طالت بسبب اضطرارها إلى الزحف الدائم. أليس في هذا تناقض واضح؟

ويزعم دارون كذلك أن الطير اكتسب فيما بعد جناحيه لكي يستعملهما في الطيران. وهنا يوجد تناقض واضح في هذا الزعم. لأنه كان من المفروض -حسب الادعاء بأن الأعضاء المستعملة تتكامل وتتطور، وأن الأعضاء غير المستعملة تضمر- أن تضمر جناحا الطائر، لأن الطائر لم يستعملهما طوال فترة عدم صلاحيتهما للطيران. لذا كان من المفروض أن تضمر الجناحان وتنعدمان أو تقربان من الانعدام والاختفاء... كما أن مثل هذا الزعم يجلب معه أسئلة كثيرة. فكيف تكامل هذا الطائر تدريجياً قبل أن يملك جناحين صالحين للطيران، ثم امتلك الجناحين فجأة؟ وكيف شعر الطائر بضرورة امتلاكه للجناح؟ وكيف قام بتطوير جناحيه؟. فهل كان يتدرب على امتلاك الجناح بعد شعوره بحاجته له فظهر هذا الجناح فجأة؟ وقبل أن يمتلك الطير الجناح أكان يتجول مع الحيوانات الأخرى؟ أم كان له عضو حافظ عليه وكان يستخدمه سابقاً وتحول هذا العضو إلى جناح؟. فكيف حافظ على هذا العضو وبأي عامل؟ لا يملك دارون ولا الذين تبنوا نظريته بكل تعصب -وكأنها حقيقة لا شك فيها- أجوبة مقنعة حول هذه الأسئلة.

نرى أن الذين يصرون على التمسك بنظرية التطور، أي يصرون على فكرة أن الأعضاء غير المستعملة تضمر وأنها تنتقل بالوراثة إلى الأجيال اللاحقة، يقدمون مثال اللوزتين والزائدة الدودية عند الإنسان دليلاً في هذا الموضوع. فأنصار هذه النظرية يقولون بأن الزائدة الدودية التي تقع بين الأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة عضو ضامر ورثناه من أسلافنا من الحيوانات آكلة العشب، لذا فلا ضرورة ولا فائدة له. ولكن العلم يقول اليوم أن

اللوزتين عبارة عن بوابة حراسة وأمن ضد الجراثيم التي تحاول دخول جسم الإنسان عن طريق الفم. ويصف البروفيسور "عثمان بـارلاس" في كتابـه "الطب السريري وتشخيص المرض" الزائدة الدودية بأنها: "المعـدة الثانيـة للإنسان". وغنى هذا العضو باللمف والأوعية الشعرية يـشير إلى أهميتـه. ويحتمل أننا سنملك في المستقبل معلومات أكثر تفـصيلاً حـول الزائـدة الدودية. ولكن ما عرضناه حولها يكفي لبيان تهافت هذا الزعم.

ويذكر دارون أن الشعر الموجود في الإنسان ضامر أيضاً، حيث يقـول: "لقد كان أجداد الإنسان حيوانات ذات شعر كثيف، وأنه عنـدما تطـور وتحول إلى إنسان سقط الكثير من شعره". ولكن عندما جاء ليفسر سـبب عدم وجود الشعر عند النساء في أكثر أجزاء أجسامهن اعتذر بعذر لا يتلاءم ولا ينسجم مع نظرية التطور فقال: "لقد كان هذا ضرورياً لجمـال المـرأة وجاذبيتها!!" لقد كان من الممكن أن يكون إيراد هذا السبب مفهوماً لو تم النظر للموضوع من زاوية الحكمة ومن زاوية الخلق الالهي.

ولكن الأمر ليس كذلك مع نظرية ترى أن هذا الوجود -الذي يستند فيه كل شيء وفي كل جانب من جوانبه، وفي كل جزيئة من جزيئاتـه وكـل حركة من حركاته إلى شعور كلي، وإلى علم وقدرة وإرادة مطلقة وأثر مـن آثارها- وهذا الكون وما فيه من حياة تستند إلى المادة الصماء الخالية من أي شعور أو علم أو إرادة أو حكمة، وإلى الطبيعة وإلى المصادفات العشوائية. أي أن قيام هذه النظرية في صدد إيضاح عدم وجود الشعر الموجود في الرجال في أجساد النساء إلى الحكمة وإلى سبب شعوري يعد هروباً وتناقضاً صارخاً. بل هو عجز عن الهروب من الحقيقة.

ويحاول دارون تفسير وجود الشعر في رؤوس الرجال وعـدم تـساقطه فيقول: "بما أن الرأس معرض كثيراً للضربات فقد كان من الـضروري أن يبقى الشعر عليه". ولكن أيتعرض أنف الإنسان وجبينه بل وركبته ورجلـه

إلى صدمات أقل، لذا تساقط الشعر هنا و لم يبق فيها إلا الشيء القليل منه بينما بقي في الرأس؟!

ويقدم الداروينيون الجدد الدليل الآتي للبرهنة على التغيرات الحاصلة في الكائن الحي للتكيف مع البيئة: يقولون بأنه جرى في بعض الأماكن الصناعية في أوروبا ما يطلق عليه اسم "قتامة التصنيع"، فقد لوحظ في هذه الأماكن أن الفراشات السوداء وذات الألوان الغامقة تستطيع صيانة أنفسها عن أعدائها عندما تحط فوق الجدران الغامقة والسوداء، أكثر من الفراشات ذات الألوان الفاتحة، وتتكاثر أكثر منها. إذن فهناك عملية تغيّر، حيث سيأتي يوم تنقرض فيه الفراشات ذات الألوان الفاتحة انقراضاً تاماً بينما تبقى الفراشات ذات الألوان القاتمة.

من الواضح أن هذا الدليل دليل متهافت تماماً. لأن الفراشات التي انقرضت والفراشات التي بقيت هي فراشات، فكما لم يحصل أي تطور من نوع إلى نوع آخر، كذلك لم يحصل أي تغير داخل النوع نفسه.

كما يقدمون حدوث التغيرات ضمن النوع الواحد من الأحياء -إما نتيجة حادثة طبيعية أو نتيجة عزل صناعي، أي نتيجة العيش في ظروف مختلفة- كدليل على التطور على أساس من التكيف للبيئة. من الممكن مشاهدة مثل هذه التغيرات في كل وقت، ولكنها تغيرات ظاهرية وتجري ضمن النوع الواحد. ولا يمكن إيراد هذه التغيرات كدليل على سلسلة عملية التكامل والتطور التي تؤدي لظهور أنواع جديدة من الأحياء. ولو تم مثل هذا الادعاء لما كان مقنعاً أبداً.

٣- التطور والمراحل التي يمر منها الجنين في رحم الأم

هناك ادعاء آخر في هذا الموضوع، وهو أن الجنين عندما يمر بمراحل النمو في رحم الأم يكون مشابهاً للمراحل الأولى لنمو الأجنة الأخرى

للحيوانات الفقرية الأخرى. ولا يوجد لهذا الادعاء أي جانب مقنع. وقد قام البرفيسور "شنكون" بنقد هذا الادعاء ويقول بأننا لا نعرف الشيء الكثير عن مدى التناظر والتشابه الموجود في مراحل نمو وتطور البويضة المخصبة. علماً بأنه ليس من السهل معرفة وملاحظة التناظر والتشابه، لأن بعض الأجنة تنمو وتتطور بسرعة، بينما تكون أجنة أخرى بطيئة النمو والتطور. ومع وجود تشابه مورفولوجي[1] -أي شكلي- فإن نسل كل كائن حي يملك خواصاً وكروموزومات وجينات واستعدادات ومسار نمو وتطور خاص به.

يعطي القرآن معلومات حول مراحل تطور الجنين، وهي معلومات أيدها العلم بعد ١٤ عصرا من نزوله. لذا سنتناول التطور في ظل الآيات القرآنية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٥).

تذكر الآية هنا أن العناصر الموجودة في التراب هي المنشأ المادي للإنسان. وقد يكون هذا الذكر رمزاً أو تشبيهاً، والمقصود منه قد يكون الأغذية التي تدخل هذه العناصر فيها والتي تكوّن سائلاً أو حساءً من البروتينات. وكلا المعنيين صحيحان. ثم يدخل هذا السائل إلى رحم الأم كنطفة حيث تبدأ بتعقب مراحل أخرى مختلفة. فيجعلها الله تعالى أولاً علقة، أي قطعة دم متخثرة ملتصقة بجدار الرحم. وكلمة "علقة" في اللغة العربية لها ارتباط بكلمة "علاقة" الموجودة في اللغة التركية. أي أن شكل العلقة الذي تأخذها العلقة الملتصقة بجدار الرحم تكون لها علاقة بالأم

---

(١) المورفولوجيا: فرع من علم الأحياء (البيولوجيا) يبحث في شكل الأحياء من النباتات والحيوانات وبنيتها. (المترجم)

وبجسدها وتتغذى منه. وينسب القرآن كل هذه التطورات بالله تعالى. لأنه ليس باستطاعة تلك النطفة ولا تلك العلقة القيام بنفسها بأي عمل، ولا تملك أي حظ للنجاح في إنجاز أي عمل من الأعمال التي تستوجبها وتيرة التحول إلى إنسان كامل مهما كان صغيراً، والتي تقتضي شعوراً وإرادة وعلماً وقدرة لانهائية. لذا فالله تعالى هو الذي يقدر هذه الأفعال وينجزها.

وعندما نقوم بشرح المراحل المختلفة التي يمر بها الجنين في رحم الأم نستعمل عبارات يبدو من ظاهرها وكأن هذه المراحل تتم تلقائياً. بينما لا نعني هذا بل هو أسلوب مجازي فقط. بينما تقوم نظرية التطور بالادعاء بأن جميع هذه المراحل تتم تلقائياً وعن طريق المصادفات العشوائية، فتعرض بذلك جهلاً وإنكاراً غير مسبوقين في التاريخ. وهذا هو السبب كما أعتقد في هذه الأهمية البالغة التي يوليها العلم المادي لهذه النظرية.

إن العلقة التي تلتصق بجدار رحم الأم تدخل في علاقة قوية وجذرية مع الأم ومع جسدها. ثم تتحول إلى "مضغة"، وهي تعني شيئاً مثل قطعة لحم ممضوغة في الفم لا شكل لها. ثم لا تلبث أن تتحول بعض الخلايا الموجودة فيها -التي تكوّن هذه المضغة التي لها شكل اللحم الممضوغ- إلى غضروف أولاً ثم تتحول تدريجياً إلى عظم. وبعد تشكل هذه الخلايا يتم تشكل خلايا العضلات والأنسجة الرابطة، حيث يقوم اللحم المتشكل منها بتكسية العظم. ولم تتوضح تفاصيل هذه المراحل في علم الأجنة الحديث إلا بعد تيسر رؤية بطن الأم بأشعة أكس، بينما شرح القرآن هذه المراحل قبل ١٤ قرنا بشكل واضح. علماً بأن الغاية الرئيسية للقرآن هي عرض الحقائق الأساسية كالتوحيد والنبوة والحشر والعبادة والعدالة، وإيضاحها والبرهنة عليها.

لذا فإن القرآن عندما يتعرض لبعض الحقائق العلمية عرضاً يستعمل أسلوب التشبيه والاستعارة والمجاز والمثال. ولكن قيام القرآن بعرض المراحل

التي يمر بها الجنين في رحم الأم بكل هذا الوضوح والصراحة لا بد وأنه كان ضرورياً لإزالة الشكوك التي تثار في المستقبل، ولإيضاح مدى خطأ ما ستطرح من نظريات -كنظرية التطور- فجاء هذا التنبيه والتفصيل من قبل ١٤ قرناً لهذا الغرض.

وبعد أن يشرح القرآن خلق العظام ثم إكساءها اللحم يقول: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾. وتبين من هذه الآية أن الإنسان خَلْقٌ مستقل بذاته، وهذه المرحلة هي بداية هذا الخلق الخاص.

ضمن هذه المراحل الخمس، أي مرحلة النطفة ثم العلقة، ثم المضغة ثم مرحلة خلق العظام، ثم مرحلة إكساء العظام لحماً، تبدو جميع الأحياء الفقرية متشابهة تماما. فلو شاهدنا جنين طائر أو سمكة أو جنين إنسان في طور من أطوار هذه المراحل الخمس لما رأينا أي فرق يذكر بين هذه الأجنة. ولكن هذا التشابه الذي يبدو تاماً، تشابه ظاهري فقط. لأن مدة هذه المراحل مختلفة فيما بينها، فبعضها قصيرة جداً وبعضها طويلة.

ثانياً إن كل جنين يملك خواصاً تعود لنوعه، ويتميز بها، ولا نستطيع مشاهدة هذه الخواص من الخارج، لا بل لا نستطيع مشاهدتها حتى لو دخلنا بطن أمه، وهو ينمو ويتطور حسب هذه الخواص، إلى درجة أن كل إنسان يختلف عن الآخرين إلى درجة ما، لأنه يظهر في النهاية فرد يختلف عن الآخرين من نواح عديدة: يختلف بشعره وعينيه وأنفه وشفتيه وقامته ووزنه وبصمات أصابعه وجزيئات D.N.A. عنده، ومظهره وتصرفاته وقابلياته. ولكن توجد بين أجنة النوع النوع الواحد صفات مشتركة تعود لذالك النوع. فمثلاً نرى أن الإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم، أي في أفضل شكل وجهّز بالعقل والمشاعر والإرادة، فإنه ما أن يأتي إلى الدنيا حتى يظهر الاستعداد للتعلم، وكذلك للترقي والسمو بالإيمان وبالعبادة. ولكونه يملك

سر هذا الاستعداد، فإن كل جنين إنساني مجهز بهذه القابليات لتحقيق الأمور والأهداف التي ذكرناها.

ومع هذا فلكل جنين بشري خواصه المتميزة، لأن كل فرد من الأفراد في النوع الإنساني يملك خواصه التي يتميز بها. وهذه الصفات والخواص التي يملكها ذلك الكائن الحي وتميزه عن الكائنات الحية الأخرى هو البرنامج الموجود في جزيئات D.N.A والكامن في جيناته الموجودة في كروموزومات ذلك الكائن. ومع هذا فلا يبدو في الظاهر أي فروق تشير إلى هذه المميزات والخواص في أجنة الأحياء الفقرية في المراحل الخمس الأولى، ولا يمكن ملاحظة أي فروق. أي تبدو وكأنها مثل الأجنة الأخرى تماماً.

ولنفرض أن أجنة الأحياء الفقرية كالطير والسمك والإنسان متطابقة بعضها مع البعض الآخر تماماً، فكيف يستطيع العلم أو أنصار نظرية التطور تفسير التغيرات الكبيرة التي ستظهر فجأة بعد هذه المراحل؟ إن الأحاديث النبوية الشريفة تذكر بأن الروح ينفخ في هذه المرحلة في الإنسان ويُكتب قدره. ولكن بما أن نظرية التطور والعلم المادي لا يعترفان بالروح ولا بالقدر فكيف يستطيعان تفسير هذه التغيرات والتمايزات الفجائية، وكيف يفسران أن كل فرد إنساني يكون متميزاً عن الأفراد الآخرين، ويتجه لكي يكون ذا كيان مستقل ومتميز؟

فإن كانت عملية التغير هذه والتمايز عند الإنسان نابعاً عن روحه الذي يعطيه هويته الحقيقية وعن قدره، أي عن الخصائص المعنوية التي تعطي له ماهيته وكيانه، فإن على التطوريين وعلى أرباب العلم أن يفحصوا كل موضوع وكل مسألة من البداية، ويفكروا فيها من جديد، أليس كذلك؟ ومع هذا فإننا نؤمن -على الرغم من الادعاء المعاكس للتطوريين- بأن لأجنة كل نوع من أنواع الأحياء، ولكل فرد من أفراد النوع الإنساني فروقاً خاصة به، وخواصاً نابعة من روحه ومن قدره.

بعد المرحلة الخامسة من النمو يبدأ الجنين الإنساني بأخذ شكل إنساني، ويبدأ كل فرد بحمل الخواص المميزة له. وهذه المرحلة هي مرحلة اكتساب صفة "أحسن تقويم" وسره. وهنا تظهر أعلى درجة من درجات صفة الخلق لله تعالى في خلق الإنسان، أو أعلى مرتبة من مراتب الخلق، وهو ما تلخصه وتشير إليه الآية الكريمة ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. لذا نستطيع القول بإيجاز بأنه لكون الخالق جل شأنه يتجلى باسمه الأعظم في خلق الإنسان فإنه -أي الإنسان- مجهز بالاسم الأعظم من أسماء الله الحسنى، فأصبح مظهراً لأن يتبوأ مرتبة "أحسن تقويم". أي إنه مخلوق متميز وفريد.

والخلاصة فإن أجنة الحيوانات الفقرية تكون متشابهة فيما بينها في المراحل الأولى، كما أن مشابهة الجنين الإنساني لأجنة الحيوانات الفقرية الأخرى مشابهة ظاهرية، وفي المظهر الخارجي فقط، لذا لا يمكن عدّ هذا دليلاً للتطور بأي حال من الأحوال.

يقول العالم سير جيمس جينز المختص في علم الفيزياء الكوني -الذي يعد من أكبر علماء القرن العشرين، والذي يعد من قبل الكثيرين بأنه "آنشتاين ثان"- في كتابه "الكون المليء بالأسرار" و"الكون من حولنا" المترجمان للغة التركية: (إن الإنسان المشغول بفرع من فروع العلم يصل إلى درجة الفناء في ذلك العلم). أي أن الإنسان يتشرب بفرع العلم الذي ينشغل به إلى درجة الفناء فيه. فلا يسمع إلا بأذن ذلك العلم ولا يرى إلا بعينه، ولا يتكلم إلا بلسانه، ويعيش انفعالات ذلك العلم. ويعطي هذا العالم مثالاً على هذا فيقول: (إن الموسيقيّ الذي يتعوّد على سماع النغمة التي يصدرها المفتاحان الخامس والسادس على الدوام، لا بد وأنه عندما ينزل سلما ويصل إلى الدرجة الخامسة ثم الثامنة سيخيل إليه أنه يسمع النغمتين نفسيهما الصادرتين من المفتاحين الخامس والسادس في البيانو).

قام بعض العاملين في الحقل الهندسي بعمل أشكال مثلثة ومربعة في

صحراء شبه الجزيرة العربية وفي الصحراء الكبرى في أفريقيا وأوقدوا فيها النيران الكبيرة، فأحدثوا أنواراً وأضوية قوية ساطعة لكي يجلبوا أنظار الكائنات الذكية الأخرى التي يرون احتمال وجودها في الكون من الذين يفكرون هندسياً مثل الإنسان. هؤلاء العاملون في الحقل الهندسي قد ذابوا وفنوا في عالم الهندسة. ويعتقد المختصون في حقل الرياضيات أن الصانع جل وعلا قد خلق الكون بمقاييس رياضية. وهؤلاء أيضاً فنوا في الرياضيات.

أما دارون فلكونه قد قضى حياته في ملاحظة وتدقيق ودراسة الحيوانات ومتحجرات الحيوانات، ولم يخرج خارج إطار هذه الساحة فإنه نظر إلى الوجود وإلى الخلق وباختصار إلى كل شيء من زاوية، ومن نافذة هذه الساحة، ومن منظارها، واستعان بتفاسير لا يقبلها لا العلم ولا المنطق ولا العقل لكي يبرهن على فرضيته. والأمر نفسه نلاحظه عند الذين تبنوا نظريته بتعصب وإصرار. وقد نبّه العالم الفلكي "جيمس جينز" إلى مخاطر التخصص مع الاعتراف بفائدته.

٤- المتحجرات

الذين تبنوا نظرية التطور من أجل تفسير منشأ الحياة وأصلها يرون ضرورة الاستعانة بالمتحجرات، وذلك من أجل البرهنة على صحة هذه النظرية من جهة، وكذلك بسبب عدم حدوث ما يثبت وقوع أي تطور ملحوظ ضمن العهود التاريخية المعروفة.

وقد فعل دارون الشيء نفسه. بدأ بدراسة الطب في بادئ الأمر لكونه من عائلة غنية، ولكنه كان يهرب من المدرسة ويتجول في الحقول منشغلاً بملاحظة النباتات والأعشاب ومهتما بها. وعندما لم ينجح في دراسة الطب قرر دراسة اللاهوت. والظاهر أنه كان يملك ذكاءً نظرياً، ولكنه لم يكن يملك ذكاءً عملياً بنفس المستوى، لذا نراه يرى صعوبة في دراسة اللاهوت،

وأخيراً أدت حادثة إلى عثوره على مهنته المناسبة له، فقد خرج في رحلة علمية بحرية رتبتها الحكومة البريطانية. وفي هذه الرحلة البحرية قام ببحوث في جزر المحيط الأطلسي وأفريقيا وأمريكا الجنوبية واستراليا. وقام بمقارنات بين الأحياء في جزر كلاباكوس وحيوانات سواحل القارة، ودرس بعض المتحجرات، ولاحظ النشاطات البركانية وفعاليات المرجان. كما جمع بعض نماذج النباتات والحيوانات.

والخلاصة أنه لكي تتم البرهنة على أن الإنسان قد أتى من سلف قردي، وأن الأنواع تتحول من نوع إلى نوع آخر، فقد ظهرت الحاجة للاستعانة بالمتحجرات للعثور على الحلقات الوسطى وعلى المراحل الانتقالية الموجودة بين الأنواع عند هذه التحولات. والذين يقومون بهذا العمل هم علماء البالانتولوجيا (أي علماء المتحجرات).

فلو عثر علماء المتحجرات -من غير الحاملين لفكر وحكم مسبق- متحجرات لأحياء يمثلون هذه الحلقات الوسطى، أي على الأحياء التي تمثل المراحل الانتقالية بين الأنواع، وذكروا إمكانية ربط الإنسان بالقرد، وفي الوقت نفسه قام علماء الجينات المحايدون بتأييدهم، عند ذلك فقط يمكن أن تحتل هذه النظرية قبولاً في المحافل العلمية، وعند ذلك فقط يمكن قبول مثل هذه النظرية، وقبول أنها تستحق إجراء الدراسات والبحوث حولها. وما لم يتم هذا لا يمكن عدّ ادعاءات التطور نظرية علمية.

متحجرة طائر

يتحدثون الآن عن متحجرة يقال أنها متحجرة لطائر طويل الذيل له أسنان، كما يملك كلابات في أجنحته، أطلقوا عليه اسم "آركيوباتركس Archaeopteryx" وزعموا أن هذا الطائر هو الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور. ويقول التطوريون استناداً إلى هذا بأنهم قد عثروا على مرحلة تطورية وسطى بين نوعين، وأنهم سيعثرون على الحلقات الوسطى الأخرى التي تصل الإنسان بأول دودة تطور منها، وسيملأون الفراغات الموجودة في هذه السلسلة. وهكذا سيبرهنون بأن الإنسان قد تطور من القرد.

علماً بأنه لا توجد أي علامة ولا أي إشارة بأن هذه المتحجرة حلقة وسطى بين الزواحف والطيور، حيث نرى البروفيسور عاطف شكون - وهو من المدافعين عن هذه النظرية- يقول في الجزء الأوّل من كتابه (التطور) عن هذه المتحجرة:

(لا تملك هذه المتحجرة قيمة دليل في المحافل العلمية). ولو عُدت هذه المتحجرة حلقة وسطى، فليس هناك من مانع إذن من عدّ الخفاش في نفس القائمة، لأن الخفاش طائر ثديي، أي من الأحياء الثديية، لذا يمكن عده حلقة وسطى بين الثدييات وبين الطيور.

ولكن العلم لا يذكر أي عهد لم يكن الخفاش فيه موجوداً، كما لم يتعرض الخفاش لأي تغيير طوال وجوده، لذا لا تجد عند أنصار التطور أي نية في استعماله كدليل في موضوع التطور. وفي الوقت الحاضر هناك بعض

الطيور التي لها أسنان في منقارها وكلابات (أصـــابع) في أجنحتـــها مثـــل متحجرة ذلك الطائر، وأفضل مثال على هذا صغار طائر Opisthocomus hotzin.

لذا فإن الاستناد إلى مثل هذه المزاعم الواهية -في الوقت الذي لم يـتم الكشف عن جميع الأحياء التي عاشت حتى الآن، بل لم يتم الكشف حـتى عن جميع الأحياء التي تعيش حالياً- والبحث بهذه الطريقة عـن الحلقـات الوسطى حتى الوصول إلى الإنسان ليس إلا عبثاً لا طائل تحته، ولا تفيـد في شيء. لأنه كان من المفروض وجود المليارات من متحجـرات الحلقـات الوسطى التي تبين مراحل الانتقال بين ملايين الأنواع من الأحياء. ومع أنه تم العثور على أعداد كبيرة جداً من متحجرات الأحياء التي عاشت سـابقاً ثم انقرض نسلها، إلا أنه "لسبب ما!!" لم يُعثر حتى الآن على متحجرة واحدة كأنموذج وكمثال على أي مرحلة انتقالية أو حلقة وسطى بين الأنواع.

أما بعض الأحياء التي خلقت وعاشت في الماضي ثم انقرضت لأسـباب عديدة على رأسها عدم تكيفها مع البيئة، كالديناصورات، فهي تشكل أمثلة على الانقراض وليس على التطور. وعلى الرغم من كل هذا فالإصرار منذ ما يزيد على قرن كامل على نظرية والقيام بصرف مبالغ طائلة في سبيلها لم يكن من أجل العلم ومن أجل الوصول إلى الحقيقة. وكما ذكرت فإن بعض المحافل العلمية مشغولة بنظرية التطور لكونها وسيلة في الوقوف ضد فكـرة الخلق، أي ضد الإيمان بالله.

أسطورة الحصان ذي الأظافر الخمسة

أحد الأدلة المزعومة التي يستند إليها التطوريون في موضوع المراحل الانتقالية هو أسطورة "الحصان ذي الأظافر الخمسة". فحسب هذا الزعم كان الحصان في السابق بحجم الثعلب ويملك خمسة أظافر، وأنه مر بعد ذلك من مراحلEohippus و Mesohippu و Merychippus وأخيراً من مرحلة Pliohippus وفي هذه المراحل قلّ عدد أصابعه. وينظر البروفسور "عاطف شنكون" إلى هذا الادعاء بشبهة حيث يقول: (لا نملك أي معطيات علمية حول مجيء الحصان من أحياء هذه المتحجرات). ولو فرضنا أن هذه المتحجرات صحيحة فلا بد أنها تعود لأنواع أخرى من الأحياء عاشت في السابق ثم انقرضت، ولا يمكن ربط الحصان بهذه السلسلة. فإن أصررنا على ربطه بهذه الأحياء، عند ذلك يظهر أمامنا -كما يقول عاطف شنكون- سؤالان مهمان:

أولاً: لماذا نقص عدد أظافر الحصان -حسب هذا الادعاء- من خمسة أظافر إلى ظفر واحد؟ ولماذا تحول من حيوان بطول ثعلب إلى الطول الحالي للحصان؟ لا يملك العلم أي جواب على هذا السؤال. وتوجد حالياً حيوانات بأظفر واحد وبأظفرين وبثلاثة أظافر. وهناك كائنات شبيهة بالثعالب لا تزال تدير حياتها في الظروف نفسها. وهناك كائنات بخمسة أظافر لا تزال على قيد الحياة. فلماذا قام الحصان إذن بطرح أظافره الأربعة ليبقى بأظفر واحد وبحجم أكبر؟ ولو قيل بأن قوائمه استطالت لضرورة

سرعة الجري، عند ذلك نسألهم: ولماذا لم تستطل قوائم كلب الصيد (السلوقي) إذن مثل الحصان؟ لأن كلاب الصيد تجري بسرعة كالحصان في الأقل، وهو أكثر استعداداً للنمو من الحصان، وأكثر حركة منه. فلماذا يكبر الحصان ويقلل من عدد أظافره بينما بقي كلب الصيد على حاله؟

لذا فكما قال عاطف شنكون فإن هذه المتحجرات المذكورة أعلاه -التي يعدونها مراحل انتقالية للحصان- حقيقية وعاشت في بعض العهود ثم اختفت، فلا بد أنها أنواع أخرى عاشت في السابق ثم انقرض نسلها.

وجود المراحل الانتقالية شرط من ناحية علم الجينات أيضاً. لأنه استناداً إلى مثال الحصان الذي ذكرناه، لا يمكن أبداً تصور أن حيواناً بحجم الثعلب انقلب فجأة وبطفرة واحدة إلى حصان. فهذا أصعب من قفز إنسان عشرة أمتار إلى أعلى دفعة واحدة. إن طفرة واحدة -أقل من مثل هذه الطفرة من ناحية التأثير والقوة- يمكن أن تقضي على الحيوان. لذا كان من الضروري وجود مراحل وسطية عديدة يعقب بعضها بعضاً بشكل منتظم. والدليل على هذا أن البحوث والدراسات تجري على هذا الخط، وضمن هذا الإطار.

ولقد أجروا بحوثاً كثيرة وعثروا على متحجرات حديثة وعلى متحجرات قديمة عديدة، ولكنهم لم يعثروا على أي متحجرات تبين مراحل الانتقال من حصان بخمسة أظلاف إلى حصان بأربعة أظلاف ثم بثلاثة أظلاف ثم بظلفين. وقد اهتموا كثيراً بالمتحجرات التي تربط الإنسان بالقرد على زعمهم، فتكلموا عن متحجرات أمثال Australopithecus و Homo erectus و Neandertal ومتحجرة رجل جاوة ورجل بكين.

نرى أن البرفسور "عاطف شنكون" يتناول هذه المزاعم بكل شبهة في الجزء الأوّل من كتابه "التطور" فهو يقول: "إذا كانت المتحجرة موضوع البحث قد عثر على يدها على بعد خمسين متراً من رأسها، وعلى بعض عظامها في عمق عدة أمتار فمن المشكوك فيه أن تكون كل هذه العظام عائدة

لمتحجرة واحدة ولمخلوق واحد، ولا يمكن التأكد من هذا. إذ يحتمل أن بعض هذه العظام تعود إلى مخلوق عاش في حقب قديمة جداً، وأن بعضها تعود إلى مخلوق آخر عاش بعده بحقب عديدة. لذا لا يمكن هنا تقديم رأي قاطع".

وقد أفرط التطوريون في موضوع البحث عن الحلقة الوسطى بين الإنسان والقرد إلى درجة أنهم تحدثوا عن متحجرة (رجل بلتداون Piltdown man) في سنوات ١٩١٢-١٩١٤ حيث زعموا أنه جد الإنسان الحالي. كانت المتحجرة عبارة عن قحف إنسان خمن بأن عمره يعود إلى خمسمائة سنة ماضية، مع فك قرد أورانجتون، مع بضعة أسنان إنسانية. وتبين في سنة ١٩٥٣-١٩٥٤ بأن هذه المتحجرة مزيفة تماماً و"مصنوعة"، أي أن بعضهم قام بتركيب فك وأسنان من قرد من نوع أورانجتون على قحف إنسان، وركبوا بضعة أسنان إنسانية كذلك في الفك، ثم قاموا بإضافة مواد كمياوية على هذه الجمجمة لتبدو قديمة جداً. إن مثل هذه التصرفات يجعل من الصعب علينا تصديق الأبحاث المتعلقة بالمتحجرات. وهي تشير بل تؤكد إلى أن نظرية التطور خرجت من كونها مسألة علمية، وتحولت إلى مسألة أيدولوجية، وإلى عقيدة.[١]

---

(١) إن محاولات التزييف هذه لا تقتصر على هذا المثال فحسب، فقد قدّم التطوريون سمكة (Rhipitistian Crossopterigian) على أنها كانت الحلقة الوسطى بين الأحياء المائية والأحياء البرية وأن نسلها قد انقرض قبل سبعين مليون سنة. ولكن تم العثور على هذه السمكة حية قرب جزيرة مدغشقر عام ١٩٣٩، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن عثر على ما يزيد على خمسين سمكة من هذا النوع. وعلاوة على هذا فلم تكن أعضاء هذه السمكة (تجاويف الأذن الداخلية، عظمة الظهر على شكل الرئس وكيس السباحة) بالأوصاف التي ذكرها التطوريون والتي ساقتهم إلى توهم أنها الحلقة الوسطى بين الأحياء البرية والمائية. وكما ذكر العالم التطوري أ. هـ.) كلارك A.H. Clark) فالخلاصة هي أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي متحجرة أو على أي نوع من أنواع الكائنات الحية يمكن عدّها حلقة وسطى، لذا فقد اضطروا إلى الاعتراف بأنه ما من حلقات وسطى قد وجدت في أي عهد من العهود. وقد اعترف (ريتشارد ب. كولد شميت Richard B. Goldschimdt) بأنه لم يتم العثور على أي مراحل انتقالية أو حلقات وسطى، لذا نرى أنه يقدم نظرية أخرى ترى أن الكائنات الحية ملأت هذه الثغرات والفجوات الموجودة بين الأنواع بالطفرات الفجائية. ولا يوجد أي تفسير لمثل هذا الادعاء سوى الإيمان بالخلق (د. آرلس: مجلة The Fountain العدد ٢٤ صفحة ١٤).

والبعد الآخر للمسألة هو: حسب أبحاث علماء البالانتولوجيا فإن أقدم متحجرة من هذه المتحجرات تعود إلى ما قبل مليون ونصف مليون سنة، بينما تم العثور في شاطئ بحيرة رودولف في كينيا على متحجرة إنسان عاش قبل ٢،٨ مليون سنة. كانت جمجمته كجمجمة الإنسان الحالي. وقد نشرت المجلة العلمية التركية (العلم والتكنولوجيا) في عددها الواحد والسبعين صورة الجمجمة مع مقالة مفصلة حولها. أي أن الكائن الذي قيل أنه يمثل المرحلة الانتقالية بين القرد والإنسان، تحول فجأة إلى حفيد من أحفاده! صحيح أن البعض ممن يستندون إلى بعض الكتب والمصادر الدينية -مثلاً الكتاب المقدس الموجود لدينا حالياً- واليهود ينتقدون القول بوجود مثل هذا التاريخ القديم للإنسان البالغ ٢,٥ مليون سنة. وهذا النقد متوجه طبعاً لعلماء المتحجرات الذين يستخدمون طرقهم وأساليبهم في تعيين الأعمار.

فإن تم الاعتراض على طرق قياس الأعمار لأي متحجرة من المتحجرات، انفتح باب الاعتراض على أعمار جميع المتحجرات الأخرى. لذا يجب عدم غض الطرف عن مدى صحة طريقة استخدام الكربون في قياس الأعمار وعلى الطرق الأخرى المستعملة في قياس أعمار المتحجرات. ولكن المهم عندنا هنا هو حقيقة أن الإنسان كان موجوداً على الأرض قبل وجود القرد، أو عاشا في الأقل في العهد نفسه.

الأشكال الخيالية لكائنات بين الإنسان والقرد

توضع أشكال معينة جنباً إلى جنب في الكتب الدراسية بـزعم شـرح نظرية التطور. ترى في هذه الأشكال شكل قرد ثم شكل ربع قرد، ثم نصف قرد ونصف إنسان، ثم ثلاثة أرباع الإنسان وأخيراً صورة شـخص أوروبي في منتصف العمر.

وكل هذا خداع في خداع. فلماذا تطور ذلك القرد يا ترى و لم تتطـور بقية القردة؟ ولماذا ظهر في الأخير رجل في منتصف العمر، و لم تظهر إمرأة؟ وكيف تم تطور المرأة؟ هل تطور قرد واحد، أم تطورت قـرود عديـدة في الوقت نفسه؟ ولماذا لم تتطور القرود مرة أخرى في الأماكن التي احتـشدت فيها القرود بمحض المصادفة وتطورت؟ وأي قسطاس علمي يرضى بأن تتم الإجابة على كل هذه الأسئلة -التي تبين الثغرات العديدة الموجودة في هذه النظرية- بالمصادفات وبالفرضيات؟ وأين حرمة العلم؟ وماذا لو كانت كل هذه الجهود تتم باتجاه فكرة الخلق، التي تنفي وجود المصادفات في الكـون، وتقول: إن جميع الدلائل تشير إلى وجود قدرة وعلم وإرادة لانهائية هي التي خلقت سلسلة الحياة هذه. أليس هذا أفضل وأليق وأكثر علمية؟

موضوع الطفرات

الطفرات إحدى نقاط الارتكاز المزعومة لنظرية التطور. وهي الفرضية القائلة بأن التغيرات الحاصلة في شفرات جينات الكائن الحي عن طريق المصادفات أو عن طريق ظروف البيئة تكون إحدى عوامل التغيير عند الانتقال من نوع إلى آخر.

إن الكروموزومات الموجودة في نواة الخلية -التي تعد بمثابة مركز القيادة في الخلية- تحتوي على الجينات. وكل الخصائص والمواصفات العائدة للكائن الحي موجودة ومسجلة في جينات هذه الكروموزومات (على شكل جزيئات .D.N.A). وجزيئات (.D.N.A) -التي تشكل آلية القيادة والأوامر- بمثابة مخزن جيني للمعلومات، وقد خلقت بحيث تستطيع حتى من استنساخ نفسها، لذا فهي مرآة إلهية.

فكما يقوم جهاز الكومبيوتر عند الضغط على زر من أزراره بتقديم المعلومات المبرمجة في ذاكرته من قبل وعرضها أمامنا، كذلك تقوم هذه الآلية بتطبيق البرنامج المدمج فيها بكل كفاءة ودون أي نقص أو قصور، بل تقوم بتشفير هذا البرنامج على الدوام. وبواسطة هذه الشفرات تستطيع الحفاظ على خصائص نوعها وتكون حارسة له عند إصدار الأوامر لتحريك مختلف الفعاليات. أي أنه ما من تأثير خارجي يستطيع تغيير هذه الشفرات ولا اجتياز الحواجز والأسوار والموانع التي وضعتها هذه الشفرات. فلا تستطيع لا الطفرات ولا أي شيء آخر تغيير خط ذلك النوع.

صحيح نحن نعلم بأن مختلف الإشعاعات والمواد الكيمياوية والظروف الأخرى للبيئة تُحدث بعض التغييرات في شفرات جينات الأحياء وفي برامجها. ولكن مثل هذه التغييرات الحاصلة في الشفرات الجينية -والتي يطلق عليها اسم الطفرات- لأي سبب من الأسباب لا تستطيع العمل على إنتاج نوع جديد من الأحياء، ولا تغير أي كائن حي من نوع إلى نوع آخر.

ولكن على الرغم من كل هذا فإن الداروينيين الجدد يزعمون بأن هذه التغيرات تتلاحق وتتجمع مما يؤدي في النهاية إلى ظهور نوع جديد. ولكن أيكفي عمر أي فرد لحصول كل هذه التغيرات عنده؟ أي أيكفي عمر الفرد ليتحول إلى نوع آخر بهذه التغيرات؟ من الواضح أنه لا يكفي. ولكن لنفرض أنه يكفي، فهل هذه التغيرات تكون مفيدة وبمقياس يكفي لتحويله إلى نوع آخر؟ هذا مستحيل. أي إن هذه التغيرات الحاصلة في الفرد تكون من النوع السلبي مثل تشوه الأعضاء أي من النوع الذي يضر بالنسل، وقد أيد علم الجينات هذا الأمر. كما لم يتم حصول العكس حتى الآن.

إن الأبحاث الأخيرة الجارية حول مرض السرطان تشير إلى أن التأثيرات الضارة مثل الإشعاعات وتلوث الجو، تعد من الأسباب المؤدية إلى تخريب الخلية وتشويهها مما يكون سبباً في حدوث مرض السرطان. ثم إنه لم تتم مشاهدة أي تغييرات من هذا النوع لا في الإنسان ولا في الأحياء المجهرية من العهود السابقة التي تستطيع الأبحاث العلمية الاستناد إليها. وقد أجرى رجال العلم -للبرهنة على صحة هذا الزعم- تجارب على ذبابة الفاكهة "دروسوفيلا" سنوات عديدة، وحصلوا على أكثر من ٤٠٠ نوع مختلف من نسلها.[١] ويعطينا البرفسور "عاطف شنكون" المعلومات الآتية حول هذه التجارب فيقول:

---

(١) قام العلماء بتعريض أعداد كبيرة من هذه الذبابة إلى العديد من أنواع الإشعاعات والمواد الكيمياوية والحرارة الشديدة لإحداث طفرات عليها وتغيير نوعها، فلم يحصلوا إلا على ذبابات مشوهة وعقيمة وفاقدة لبعض أعضائها (كأجنحتها وأرجلها)، ولم يحصلوا على أي تغيير مفيد لهذا الكائن الحي. (المترجم)

(ومع أننا لم نلاحظ حصول أي تغيرات جذرية في ماهيتها، إلا أنــه تم حصول تغيرات عليها نتيجة تعرضها للطفرات. ولكن لم يتم الحصول على نسل جديد نتيجة تلاقحها وتناسلها).

والخلاصة أن التجارب العديدة التي أجريت على أكثر مــن ٤٠٠ مــن ذباب الفاكهة أظهرت أنه -مع حصول تغيرات طفيفة عليها- من المستحيل أن يتغير نوعها أو ماهيتها. فقد حدثت تغييرات غير ذات أهمية على ذبابات الفاكهة نتيجة تأثير الشروط والظروف البيئية عليها مثلمــا يحــدث علــى الإنسان من تغييرات بسيطة من ناحية اسمرار الجلد، أو ارتفاع ضغط الدم. وعندما تمت عمليات التناسل بين هذه الذبابات المتعرضة لهذه الــتغيرات لم يتم الحصول على نسل جديد، أي أصبحت هذه الذبابات عقيمة، كما أن تشوهات عديدة ظهرت عليها.

لقد أعطي للإنسان حق وصلاحية التدخل في عمل الطبيعة بمقياس معين، لأنه خليفة الله في الأرض ومكلف بإعمارها واكتشاف العلوم وتطويرهــا واستخدامها في هذه السبيل، مما يوجب عليه مثل هذا التدخل. ولكن هــذا التدخل لن يستطيع تغيير الحيوانات من نوع إلى آخر. أما في النباتات فيمكن -حسب القوانين التي وضعها الله تعالى في الطبيعة- بواسطة عملية التطعــيم في الأشجار الملائمة للتطعيم الحصول على نوع آخر من الأشجار. ولكــن يجب التنويه بأن هذا غير ممكن في جميع الأشجار، فأي شجرة كانت ملائمة للتطعيم حسب طبيعة خلقها فيمكن تحويلها إلى نوع آخر بالتطعيم. ولكن لا يوجد في عالم الحيوان تغيير بهذا المقياس. ولكن يستطيع الإنسان بعمليــة التلقيح، أيْ باستخدام مني جاموس مثلاً من نوع جيــد لتحــسين نــسل جاموسة أدنى منه نوعية.

وخارج هذا النطاق فقد سمح الله بعملية التناسل والإنجاب بين الحــصان والحمار. ولكن البغل الناتج من هذه العملية -التي تعد عملية اســتثنائية في

عالم الحيوان- يكون عقيماً. أي إن مثل عمليات التناسل التي تتم بين أجناس مختلفة من الحيوان تكون الذرية الناتجة عقيمة، فلا يمكن ظهور نوع جديد منها. و لم يلاحظ -خارج هذا الأمر- أن تراكمات للطفرات ضمن شريط زمني طويل يمكن أن تنتج نوعاً جديداً من الأحياء. و لم تنتج من المحاولات العديدة التي جرت على بعض أنواع الأحياء سوى فروقات طفيفة كقصر في السيقان، أو اختلاف في الألوان. ولكن كل نوع حافظ على نفسه وعلى خواصه وأصله، فبقي الذئب ذئباً وبقي الخروف خروفاً.

والتدخل الإنساني لا يقلب الذئب إلى خروف، ولا الخروف إلى ذئب. وهذا الأمر ليس صحيحاً وجارياً في مثل هذه الأحياء المعقدة التركيب فقط، بل لم تتم مشاهدة تغيرات ذات بال حتى في البكتريات التي هي أصغر الكائنات الحية. وقد لوحظ أن هذه البكتريا التي تتكاثر بالانقسام كل عشرين دقيقة بالرغم من كونها تصاب بالطفرة بعد ٦٠ ألف جيل من أجيالها فإنه لا يوجد أي فرق بينها وبين أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل ٥٠٠ مليون سنة، ولا مع أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل مليار سنة كما أثبت ذلك علم المتحجرات.

والمسألة الأخرى هي -كما ذكرنا ذلك باختصار من قبل- أن علماء المتحجرات يقولون بأنه لكي نقبل بحدوث التطور يجب العثور على الحلقات الوسطى والمراحل الانتقالية بين الأحياء. ولكن بعض الداروينيين لا يرون ضرورة لوجود هذه المراحل الانتقالية ويرون أن الكائن الحي يستطيع القفز فجأة إلى نوع أعلى، فيقولون بأن من الممكن مثلاً أن يخرج طائر من بيضة تعود لحيوان زاحف.

ويقوم علماء الجينات بالرد على هؤلاء، ويقولون باستحالة قيام أي كائن حي مثلاً بتبديل ١٠٠٠ صفة وخاصية مرة واحدة. يقول الدكتور "لوكومت دنوي Dr.Lecomte de nouy": (يحتاج الحصان إلى خمسة

ملايين سنة لكي يستطيع تبديل خمسة أظلافه بظلف واحد). لذا فإذا أخذنا هذه المسألة في ضوء هذا التكامل التدريجي فإن زعم حدوث مثل هذه الطفرة الفجائية ليس إلا سخفًا واضحاً. فإن قيل لنا بأنه تغير تدريجياً وعندما بلغ نقطة معينة تبدل فجأة، عند ذلك نقول لهم بأن من الضروري حدوث هذا التطور والتغير خطوة فخطوة. فمثلاً يجب لكي يتحول الحصان إلى كائن بظلف واحد وجود حصان بأربعة أظلاف، ثم حصان بثلاثة أظلاف ثم حصان بظلفين.

ولا شك أن التغير يجب ألا يقتصر على عدد الأظلاف، لأن الجسم عندما يقوم بفعالياته فإن كل جزء منه مرتبط بعلاقات وثيقة مع الأجزاء الأخرى. وحتى عندما يندمل جرح في الجسم يمكن ملاحظة اندماله بسهولة. لذا فلا يمكن عدم ملاحظة كل هذا التغير الكبير. والخلاصة أن من المستحيل أن يخرج طائر من بيضة زاحف. لأن تغيراً بقوة مئات من الطفرات سيؤدي إلى هلاك ذلك الكائن الحي في لحظة واحدة.

تحدث انقسامات سريعة وتكاثر سريع في الأحياء المجهرية. فمثلاً تنقسم بكتريا Ascherichia coli كل عشرين دقيقة وبشكل متعاقب. وتتناسل ذبابة الفاكهة ثلاثين مرة في السنة الواحدة. أي أن السنة الواحدة لهذه الذبابة تعادل مليون سنة من سنواتنا، فما يحصل لدى الإنسان من تغير طوال مليون سنة يجب أن يحصل لدى هذه الذبابة في سنة واحدة. فلو حصل تغير في النوع لدى هذه الذبابة في سنة واحدة قبلنا آنذاك أن مثل هذا التغير النوعي قد يحصل لدى الإنسان في مليون سنة. ولكن الحقائق المشاهدة هي على النقيض من هذا تماماً.

وهناك من علماء المتحجرات من يذكر أن البكتريا والطحالب الخضراء والزرقاء عاشت في العهد السلوري والبرمي وهي من العهود الجيولوجية القديمة. ويرد في بعض الكتب أن هذه البكتريات وجدت قبل ٣٠٠ مليون

سنة، وفي كتب أخرى أنها وجدت قبل ٥٠ مليون سنة، وأنها طوال خمسين أو ٣٠٠ مليون سنة لم تتغير وأن البكتريات الحالية تشبه تلك البكتريات السابقة تماما.

وقد يعترض بعضهم علينا فيذكر بأن متحجرات الطحالب الخضراء والزرقاء قليلة جداً، وهذا يؤدي إلى تعذر البرهنة على تعرضها لأي تغيير أو تطور. ولكننا على أي حال نتكلم عن الكائنات الحية التي لها القابلية على سرعة التكاثر مثل البكتريا. فهذه الكائنات لم تتغير و لم تتطور طوال مدة خمسين وربما طوال ثلاثمائة مليون سنة.

كما لم تتم مشاهدة أي تغيرات في الحيوانات في الحدائق الطبيعية التي أنشئت في مختلف أنحاء العالم وفي حدائق الحيوانات والتي عرضوا فيها هذه الحيوانات لمختلف الظروف الطبيعية. وهناك مختبرات عديدة تطبق فيها أبحاث ومحاولات لإحداث الطفرات، ولكن لم يتم الوصول حتى الآن إلى أي نتيجة. أما بعض الحوادث الجزئية التي ادعوا أنهم نجحوا فيها في هذا الصدد فترجع إلى الخصائص الفطرية الموجودة في تلك الأنواع. أي أن هذه الأنواع لها قابلية لظهور هذه التغيرات فيها. هذا مع العلم أن قانوناً – كالتطور– يدعي أنه هو الأساس في تفسير الكائنات الحية وفي تفسير الحياة لا يمكن أن يكون محدوداً في نطاق ضيق جداً وفي مشاهدات وتغيرات جزئية، بل يجب أن يكون شاملاً لجميع الأحياء.

لقد وضع الله تعالى استثناء لكل قانون عام في هذا الكون، لكي لا يتعلق الإنسان بهذه القوانين وينسى الفاعل الحقيقي وراءها الذي هو الله تعالى رب العالمين. وعلى الرغم من هذا فلم يتم العثور حتى الآن على حادثة تحول في هذا المستوى في الأبحاث الجارية في المختبرات.

يوجد في هذا الصدد حادثة الكائن الحي الذي يطلق عليه اسم Allopoliploidi والذي يوجد في جنسه نوعان مختلفان، حيث تمت

مضاعفة عدد الكروموزومات ثُم تَمَّ إجراء عملية التناسل بينهما فظهر نوع هجين منهما. فمثلاً إن قمنا بمضاعفة عدد الكروموزومـــات في الكرنـــب والفجل ثم قمنا بعملية تلقيح بينهما حصلنا على نوع جديد مـــن الفجـــل. ولكن هذا يحدث في عالم النباتات، وكلما ترقت الأحيـــاء ووصـــلت إلى مستويات أعلى استحال ظهور هذه الأمور. لذا فلا يمكن العثور على أمثال هذا في عالم الحيوانات وفي عالم الإنسان.

القيام بمضاعفة عدد الكروموزومات، وكذلك القيام بعمليات التناســـل بين الأنواع المختلفة يؤدي في الظروف الطبيعية إلى عقم الحيوان الناتج مـــن هذا التناسل (كالبغل مثلاً). ونظراً لأن مثل هذا المخلوق لا تكـــون أمامـــه فرصة ليصبح أباً أو أمّاً لذا نقوم بمضاعفة عدد كروموزوماته إلى الـــضعف. وكما ذكرنا فإن هذا الأمر غير وارد في عالم الحيوان، وإن كـــان وارداً في عالم النباتات. إن عدد الكروموزومات في الإنسان يبلغ ٤٦ كروموزومـــاً. أي أن هذه الكروموزومات هي التي تعين الصفات البيولوجيـــة للإنـــسان، وهي التي تعين ماهيته.

وعلى الرغم من هذا فعندما يتغير هذا العدد ويصبح ٤٥ أو ٤٧ أو ٤٨ كروموزوماً، فلا يظهر هناك نوع آخر من الأحياء، بل يظهر إنسان مـــشوه وغير طبيعي. أي إن الفرق في عدد الكروموزومات يـــؤدي إلى تـــشوهات جذرية. لذا فلو قمنا بمضاعفة عدد الكروموزومات عند الإنسان فلا نحصل على نوع آخر من المخلوقات، بل على طفل بشري ولكنه يموت قبل أو بعد الولادة ولا يعيش. أما عندما يكون التغير في عدد الكروموزومات بمقياس لا يؤدي إلى الموت، فالنتيجة تكون ظهور العاهات والتشوهات والأمراض. لذا فإن التلاعب بعدد الكروموزومات في عالم الحيوان وفي عـــالم الإنـــسان لا يجلب سوى الكوارث. أي أن الطفرات -التي تعني تدخلاً في نظام D.N.A. للكائن الحي- تؤدي إلى نتائج ضارة وتأثيرات مميتة عند الأحيـــاء. لـــذا لا

يمكن الحديث عن طفرات تؤدي إلى تغيرات كبيرة ومفيدة في الوقت نفسه.

وقبل إكمال هذا الموضوع يجب التطرق إلى أمر آخر، وهو زعم بعض التطوريين -ولاسيما في تركيا- بأن شفرات خريطة الجينات في الإنسان قد تم حلها. وهم يريدون استخدام هذا الأمر كدليل على التطور، بينما يذكر العلماء الحقيقيون بأنه من السابق لأوانه القول بحل شفرات خريطة الجينات في الإنسان. ففي مقابل الادعاء بأن نسبة معينة من الجينات متراصة، نرى هناك عدم اتفاق حول عدد الجينات الموجودة في الإنسان، فهم يعطون أرقاماً تتراوح بين ٢٨ ألفا إلى ١٤٠ ألفا من الجينات.

ويقول العلماء بأن رصّ نسبة من هذه الجينات لا يعني حل شفرات خريطة الجينات. كما يشيرون بأنه لا يمكن بهذا قراءة "كتاب الحياة". كما يذكرون بأن النجاح المتحقق حتى الآن في هذا الموضوع يساعد فقط في تشخيص بعض الأمراض الجينية. لأن معرفة شفرة جين من الجينات لا يعني معرفة البروتينات التي يقوم هذا الجين بإنتاجها في الجسم، ولا معرفة أي البروتينات ستتأثر بهذا البروتين أو تؤثر فيه، فهذا الموضوع ليس واضحاً حتى الآن.

إن الخالق ذا الرحمة غير المحدودة كما وضع المعلومات الجينية بشكل مزدوج، كذلك جعل شفرات الأحماض الأمينية -من باب الأمن والاحتياط- أكثر من شفرة واحدة. وهذه المعلومات الجينية مثل لغة إن لم تُقرأ بشكل صحيح وتتم ترجمتها بإنتاج بروتين جديد فلا قيمة لها. لذا كان من الضروري تحول هذه المعلومات بشكل صحيح وبالمقدار الصحيح وفي الوقت المناسب إلى بروتينات، علاوة على ضرورة وجود هذه المعلومات من ناحية استمرار الحياة والصحة.

والسؤال المطروح هنا: من الذي يعطي الإذن لاستعمال بعض هذه المعلوات الجينية الموجودة في الكروموزومات -والتي يشكل كل منها

موسوعة معارف كاملة- ولا يسمح لبعضها الآخر؟ لقد دلّت الأبحاث أن هناك بروتينات تملك خاصية وقابلية فتح معلومات معينة وقراءتها، وغلق معلومات أخرى ومنع قراءتها. وبعبارة أخرى إن الشفرات الجينية تحل رموزها وتُقرأ من قبل مجموعة من البروتينات لاستعمالها في صنع البروتينات، حيث تقوم هذه البروتينات المصنوعة بتعيين متى وبأي شكل يجب أن تتم قراءة هذه المعلومات.

فيا ترى من أين تتلقى هذه البروتينات أوامرها، ومن الذي يوجهها في هذه الفعاليات التي يعدّ مجرد اكتشافها حتى من قبل الإنسان -الذي يعد أرقى الأحياء من ناحية الشعور والفكر والعلم- فتحاً كبيراً ونجاحاً متميزاً؟ وكيف تصل هذه البروتينات إلى وضع تستطيع فيه تدقيق البرنامج الجيني الذي أخذته من أجل إنتاج نفسها ثم السيطرة على هذه المعلومات فيما بعد؟ ونستطيع أن نشاهد برنامجاً غامضاً عند القيام بإنتاج نسل جديد. كما أن من المدهش جداً ما نراه من قابلية الحيوان على إصلاح الأعضاء الجريحة أو المقطوعة أو التالفة وتجديدها، وإن كانت هذه الأمور تجري تحت ستار من الإلفة.

فالخلايا الموجودة في الأعضاء المقطوعة أو التالفة كانت خلايا اعتيادية في الجسم، و لم تكن قد تميزت. فمثلاً عندما تُقطع رجل من أرجل الضفدع تبدو أن الخلايا نفسها -وكأنها تلقت أمراً سرياً من مصدر ما- تتمايز وتقوم بتشكيل خلايا غضروفية وخلايا عظمية وخلايا عضلية والأنسجة الجلدية (Epitelyum) لكي تشكل منها ساقاً جديدة.

فهل يوجد تخطيط لبناء الأرجل في هذه الخلايا؟ هل هناك مثل هذا التخطيط تعرف منه هذه الخلايا أن الكائن الحي بحاجة إلى رجل فتقوم بصنعها وتنفيذ هذا المخطط؟ ولماذا لا تنشط هذه الخلايا إلا عندما يحتاج الجسم إلى مثل هذه الفعالية؟ وبما أنه يستحيل على الخلايا معرفة هذا، وبما

أنه لا يوجد في الجسم ولا في الطبيعة أي آلية أو مركز يقوم بتزويد الخلايـــا بمثل هذه المعلومات والإيعاز إليها للقيام بهذه الفعاليات إذن فهناك من يعرف جميع حاجات الجسم، وله القدرة على تلبيتها... إذن هناك من يعرف مكان وزمان كل هذه الأعمال والفعاليات.

زعم شجرة النسب وشجرة الوجود

إن سيناريو شجرة النسب الذي أطلقه التطوريون وأصروا عليه باسم نظرياتهم متشابك جداً ومختلط. والاكتشافات الجديدة في علم البيولوجيا الجزيئية تعرض مشاكل ومطبات وألغازًا ومصاعب جمة أمام نظرية التطور، إلى درجة أن هذه النظرية حشرت تماماً في زاوية ضيقة. لأن "أشجار النسب" التي عملت باتخاذ مجموعات مختلفة من الجزيئات أساساً أدت إلى ظهور نتائج مختلفة إلى درجة أنه لم يعد معلوماً من تطور ممن، و لم يعد في الإمكان الخروج من هذا المأزق ومن هذه الفوضى.

وعلى الرغم من هذا فلا يزال التطوريون يقولون: "عندما نتخذ مجموعات مختلفة من الحيوانات يمكن أن نحصل من مجاميع الجزيئات البيولوجية المختلفة التي نتخذها أساساً أشجار نسب عديدة مختلفة". ولكنهم عندما يقومون بهذا يعترفون ضمناً بأنهم أخذوا نظرية التطور كحقيقة مُسلّم بها منذ البداية، ثم رصّوا ما في أيديهم ورتبوه على هذا الأساس، ومن ثم رسموا أشجار نسب خيالية. كما أن زعم التطوريين بأن جذر الوجود شيء وجذعه شيء، وأغصانه وأثماره شيء آخر زعم خاطئ. لأن الأبحاث أظهرت بأن الجذر والجذع والأغصان والأوراق توجد معاً وتعيش معاً.

كان في العهد الكمبري الكثير من الأحياء التي جعل التطوريون بعضها سلفاً وجداً للآخر... بينما نرى أنها كانت تعيش معاً وأنها ظهرت جميعاً إلى الوجود فجأةً. كما أن من الحقائق الثابتة أن العديد من الأحياء البسيطة

التركيب عاشت معاً وفي العهد نفسه مع حيوانات معقدة التركيب. وهـذا يعني أن أحياء -كان من المفروض أن تعيش أحفاد لها بعد ١٠٠٠٠٠ جيل- عاشوا مع أحياء كان من المفروض ألا يعيشوا معها إلا بعد ١٠٠٠٠٠ جيل. ويعني كذلك أن من الممكن أن تعيش الأحياء البدائية التي زعم أنها عاشت قبل مليارات السنين، جنباً إلى جنب مع الأحياء المعقدة التركيب التي خمنت من قبل أنها عاشت بعدها بمليارات السنين.

وعلاوة على هذا فقد ظهر العديد من الأحياء -بدءاً من الأحياء العديمة الفكوك ذات الحراشف إلى أسماك القرش من الأحياء التي تعيش بيننا حالياً- في العهد الديفوني فجأة، وقد استطاعت اجتياز ذرى العهود لتصل إلى أيامنا الحالية، حيث يستحيل على نظرية التطور تفسير هذا الأمر. فمثلا نرى أن التطوريين يزعمون أن مجموعة Crossopterygi السمكية -التي تعد حسب نظرية التطور سلفاً للضفدع- قد انقرض نسلها قبل سبعين مليون سنة، بينما نعلم أن مجموعات كبيرة منها شوهدت في سواحل أفريقيا. كما ظهر للعيان أن الضفادع والزواحف عاشتا معاً في العهد الكربوني، وهذا ما لا يمكن فهمه من زاوية نظرية التطور، أي أن كلا هذين الأمرين يعدان ضربتين قاتلتين للفكر الذي يرى أن الزواحف تطورت من الضفادع.

الانتخاب الطبيعي

الانتخاب الطبيعي هو إحدى نقاط الاستناد التي يستند إليها التطوريون. والانتخاب الطبيعي يعني أن الأحياء التي لا تستطيع مقاومة المصائب الطبيعية المختلفة وكوارثها كالسيول والزلازل تنقرض وتزول من مسرح الحياة، ولا يبقى هناك إلا الأحياء القوية المقاومة للظروف الطبيعية المختلفة.

أنا لا أدري أولاً علاقة هذا الأمر بالتطور، ولا أدري بأي نسبة يمكن أن يكون مرتبطاً به. لأنه لا يوجد أي دليل أو أمارة بأن أي نوع من أنــواع الأحياء التي بقيت بعد الكوارث قد غير نوعه. ومع أنه يشار إلى أن أنواعــاً معينة من الأحياء قد انقرضت، إلا أن متحجرات هذه الحيوانات المنقرضة لم تظهر للوجود كأنواع جديدة، كما أن الأحياء القوية التي بقيت سالمة بعــد الكوارث لم تطفر إلى أنواع أعلى. ثم إنه يوجد داخل كل نوع من الأنواع على الدوام أفراد أقوياء وأفراد ضعفاء، وهما يعيشان معاً جنبًا لجنــب. ولله سبحانه وتعالى حكم عديدة ومدهشة ضمن القوانين التي أودعها في حيــاة الحيوانات عندما جعل بعض الحيوانات ضعيفة، والأخرى قويــة في النــوع الواحد أو في القطيع الواحد.

إن تغذي بعض الأنواع باللحم يؤدي إلى تشكل سلسلة من الغــذاء في الطبيعة، وبهذه الواسطة يستمر التوازن البيئي في الطبيعة بكل كماله. ولو لم يحدث هذا، أي لو لم يكن هناك في قطيع الغزلان أي غزال يستطيع الأســد أو النمر صيده، أو لو كان جميع أفراد نوع ما قوياً، لكانت النتيجة أن يموت

كل أنواع الحيوانات المفترسة التي تتغذى على اللحم، ولتكاثرت الحيوانات الأخرى على حسابها، ولفسد التوازن البيئي من أساسه. لذا فإن مشاهدة مثل هذه الحادثة وكون الحيوانات الضعيفة طعماً لأحياء أخرى هو من أجل بقاء هذه الأحياء.

ويجب هنا التنبيه على ما يأتي: عندما يُقضى على الأفراد الضعفاء في جيل من الأحياء فلا يعني هذا أن الأجيال القادمة ستكون قوية، ففي كل جيل يوجد الضعفاء جنباً إلى جنب مع الأقوياء. وعندما يكون الضعفاء والمتقدمون في السن والذين لا يتكيفون مع القطيع طعماً للحيوانات المفترسة فإن حياة القطيع تستمر.

انطلاقاً من هذا يقترف التطوريون والذين يؤلهون الطبيعة جناية كبرى عندما يأخذون مثالاً واحداً أو حادثة واحدة ويجعلونها شاملة لجميع حياة الأحياء فيصورون الحياة وكأنها عبارة عن صراع وعراك. فهم يعدون أن الغاية الوحيدة من الحياة هي محاولة الأحياء الاستمرار في الحياة، والحصول على الغذاء من أجل تحقيق هذه الغاية. وعندما يقوم التطوريون والماديون وعبّاد الطبيعة بتقويم حياة الإنسان أيضاً على نفس النحو فهم يقدمون ذريعة للأقوياء للبقاء على حساب الضعفاء، ويرون في هذا حقاً طبيعياً لهم، كما يقدمون الحياة وكأن الغاية الأساسية منها هي الأكل والشرب والتناسل. وهذا يؤدي إلى قطع التعاون بين الناس وبين الأمم والشعوب، ويجعل استغلال الإنسان شيئاً مشروعاً ولا غبار عليه، فينزعون عن الإنسان جميع قيمه السامية، وينزلون به إلى درك الحيوان بل أسفل منه وأضل.

بينما الصراع شيء ثانوي في الحياة وفرعي. والأصل هو التعاون، فأعضاء جسم الكائن الحي في تعاون مستمر فيما بينها. وتتعاون الشمس بضيائها وحرارتها مع الهواء والماء والتربة لإنتاج الأثمار للإنسان أو للحيوان حسب أجناسها وأصنافها. أي أن عناصر الكون كلها تتعاون في إنبات

النباتات على الرغم منها للحيوانات وللإنسان، وتسخر الحيوان من أجل الإنسان، كما يقوم الإنسان -إن كان على وعي بوظيفته في الأرض كخليفة- بنجدة النبات والحيوان، ويقدم جهوده من أجل الحفاظ عليهما.

وبينما يقوم الحيوان والنبات -ضمن جوقة التعاون الرائع الموجود في الكون- بالطاعة الجبرية للقوانين الإلهية الموضوعة (لأن هذه الطاعة جزء لا يتجزأ من فطرتهما) نرى أن الإنسان الذي جُهز وشُرّف بالإرادة يشترك في كادر وفي نظام هذا التعاون بإرادته. وانطلاقاً من هذا تقع عليه وظيفة القيام بتحويل هذه الأرض إلى ساحة للتعاون والأخوة، وليس إلى ساحة صراع وحرب. ولكن التطوريين يتناولون هذه المسألة بشكل معاكس، لذا لا يمكن القول أنهم لا يتحملون أي مسؤولية عن الانقلابات وعن الصراعات والحروب التي حدثت في العصرين الأخيرين التي كانت بمثابة كوارث دولية وفواجع عظيمة.

وينظر التطوريون إلى هذه الكوارث وإلى أمثالها من الاستعمار الدولي، وتجارة الرقيق والتمييز العنصري، وسيادة القوة على الحق وكأنها "المسيرة الطبيعية" للتاريخ. وبهذا يعطون الحق والشرعية لها بوجه من الوجوه. لذا نرى أن كارل ماركس مؤسس الشيوعية الذي وضع نظريته في التاريخ على هذا الأساس[1] يدين بالشيء الكثير لدارون.

لذا فليس من الغريب أن يكون الشيوعيون من أكثر الماديين ارتباطا بنظرية التطور ودفاعا عنها. لأن نظرية التطور من الأسس التي يستند إليها الإلحاد. وفي الحقيقة فإن جميع هذه العوامل هي الأسباب الكامنة وراء الإصرار للإبقاء على نظرية التطور واقفة على قدميها في دنيا العلم، حيث قلبت هذه النظرية إلى عقيدة وإلى أيدولوجية مقدسة. وكم هو غريب ومتناقض أن نرى هؤلاء

---

(١) كما هو معلوم فإن النظرية الماركسية للتاريخ تقوم على صراع الطبقات، وهو ما يقابل الصراع من أجل البقاء في نظرية التطور. (المترجم)

وهم يزعمون أنهم أبطال الحرية والمدافعون عن حقوق الإنسان، وحقوق المضطهدين والمسحوقين.

وعلى الرغم من زعم التطوريين حول الانتخاب الطبيعي، فإن الكوارث الطبيعية التي لا قبل لأحد في مواجهتها كالسيول والزلازل وما يتبعها من خراب والهدام لا تقضي على الأفراد الضعفاء من الأحياء فقط، بل تقضي حتى على أقوى الأقوياء منها. فمثلاً نرى أن موجة بحرية عاتية تضرب الآلاف من الأحياء الضعيفة منها والقوية بالصخور وتقضي عليها، أو تسحبها إلى البحر وتغرقها.

ثم إنه على الرغم من هذا الادعاء فإننا نرى في كل عهد من عهود التاريخ، وفي كل سنة وموسم ويوم إن أضعف الأحياء يعيش -ضمن القوانين الإلهية الموضوعة في الطبيعة- مع أقوى الأحياء جنباً إلى جنب. فنرى الحوت وهو يعيش مع أصغر الأسماك ومع سمك القرش، ونرى في الجو النسر مع اللقلق ومع العصفور والحمام، وفي البر نرى النمل والأرانب والأسود والفهود، والغزلان، والوشق تعيش معاً، حيث نرى أن التوازن البيئي والطبيعي مستمر بدرجة الكمال منذ ملايين السنين دون أن يصيبه أي خلل. بل إن الأغنام والحمام والغزلان وغيرها من الحيوانات الضعيفة غير آكلة اللحوم وغير المفترسة تتكاثر بصورة أقل من غيرها، وتضع مولوداً واحداً أو مولودين فقط في السنة، ومع ذلك نراها أكثر عدداً في كل مكان من الحيوانات المفترسة التي تتكاثر أكثر منها.

إذن فليست هناك عملية إبادة، بل هناك عملية خدمة الحياة، حيث إن الأحياء التي لا تعد ولا تحصى من النباتات والحيوانات التي لا تعقل ما تفعله، تقوم بحياتها ووجودها بتقديم خدمة جليلة، لتحقيق أهداف علوية، وهي بأعمالها هذه تسبح الله تعالى وتحمده. لذا فلا يمكن البحث عن الانتخاب الطبيعي بالمقياس الذي يدّعي التطوريون وجوده في الطبيعة، وليس هو

بالقانون الطبيعي الذي لا يمكن رده أو الوقوف في وجهه في الحياة الاجتماعية للإنسان والأمم، ولا هو ظاهرة اجتماعية سائدة.

إن أعداد الأحياء الضعيفة بدءاً من الأحياء المجهرية إلى النمل والنحل، إلى غزلان الصحاري، إلى أسماك البحار أكثر من أعداد الأحياء القوية جداً أضعافاً مضاعفة. وإن استمرار انبثاق الحياة حتى في الأجواء القاتلة سواء عند الإنسان أو عند الحيوانات المفترسة، وكذلك قيام الحيوانات الضعيفة جداً والتي تمتلك أجساداً رقيقة وغير قوية بالحفاظ على أنفسها بطرقها الخاصة بها... كل هذا أدى إلى الحفاظ على التوازن البيئي من الأمس حتى اليوم. وكل هذه مسائل قررها العلم ولاحظها، وتعد ضربات قوية على رأس الانتخاب الطبيعي.

ثم إن علم المتحجرات (البالانتولوجيا) يقرر -بنقيض نظرية التطور- أن الأحياء البدائية كالأحياء وحيدة الخلية عاشت مع الأحياء المعقدة التركيب كالضفادع والزواحف والثدييات.

فمثلاً زعم التطوريون أن Neoplina عاش قبل ٣٠٠-٤٠٠ مليون سنة وأنه انقرض بسبب الانتخاب الطبيعي، وأن Coelacant عاش قبل سبعين مليون سنة ثم انقرض، وأن Crinoid عاش قبل ٥٦٥ مليون سنة ثم انقرض، وأن Limulus عاش قبل ٢٢٥ مليون سنة ثم انقرض، وأن Flint Gunt عاش قبل مليوني سنة ثم انقرض. ومن الممكن طبعاً عدّ المئات من هذه الأحياء التي زعم التطوريون أنها انقرضت قبل ملايين السنين. ولكن تبين أنها جميعا تعيش حالياً وأنها تشبه أجدادها تمام الشبه دون أي تغيير. لذا فهي شواهد على أن نظرية التطور لا تملك أي مصداقية لا في الأرض ولا في السماء.

والخلاصة أن الانتخاب الطبيعي -مثله في ذلك مثل ظاهرة التكيف- الذي كثيراً ما يُستند إليه من قبل التطوريين ليس إلا فرضية ضعيفة، وواهنة،

ولا أساس لها من الصحة. فالمشاهدات العلمية لا ترينا -كما يظن الفكر التطوري- قيام البيئة أو الظروف المناخية برمي الأحياء الضعيفة خارج النوع، ولا قيام الأحياء القوية بامتلاك حق الحياة وإبادة الضعفاء. لذا فالأصوات المنعكسة في سماء الوجود ليست عبارة عن جلجلة أصوات الأقوياء، وأنين أصوات الضعفاء وهي تموت. ومع أننا يمكننا العثور على أمثلة من هذا القبيل في التاريخ الإنساني من حين لآخر، إلا أنه عندما يسود الحق نرى ظواهر الرحمة والشفقة من الأغنياء نحو الفقراء والضعفاء، ونرى الشكر من الفقراء للأغنياء. هكذا كان ديدن التاريخ حتى يومنا الحالي.

المادية ومزاعم المصادفة والظهور التلقائي

نجد في أساس نظرية التطور مزاعم الظهور التلقائي للوجود نتيجة المصادفات. كان لامارك -الذي يعد أبو نظرية التطور قبل دارون- يسند التطور إلى الله. وكان يرى في التطور قابلية أعطاها الله تعالى للأشياء وللطبيعة. لذا كان من أنصار التطور الخلاق. بينما نرى في المقابل أن دارون أسند أساس الوجود إلى المادة وإلى الذرات وإلى الروح الخلاقة الموجودة فيها. لذا يعد دارون -بوجه من الوجوه- من أنصار "وحدة الوجود". أما الذين جاءوا من بعده فقد ربطوا الوجود كله تماماً بالمادة، فانحرفوا إلى المادية وإلى الإلحاد بشكل كلي، واختاروا استعمال نظرية التطور كسلاح وكواسطة لإنكار الله.

والذين يناصرون نظرية التطور اليوم في عالمنا هم الملحدون من أصحاب الفلسفة المادية. فهؤلاء يؤمنون بأزلية المادة. ولكم أن تتصوروا مقدار هذا الجهل المعلن باسم العلم عندما ترى بأن هذا الوجود الذي يستلزم علماً لانهائياً وقدرة وإرادة وحياة لاينسب الى صاحب هذا العلم اللانهائي والقدرة والإرادة والحياة بل ينسب إلى المادة الخالية من الحياة ومن الشعور ومن العلم والقدرة والقوة، والتي لم يتفق العلماء بعد على تعريفها ولا على ماهيتها، والتي تتحول في يد الإنسان من شكل إلى شكل، وأعطوا لهذه المادة العاجزة موقع الخالق.

وأنا عاجز عن وصف الألم الذي أحسه عندما أفكر بخالقي ومعبودي -

الذي أرتبط به بكل روحي وكياني- فأجدهم يقرنونه بالمادة، علماً بأن العلم وكرامته والفكر الموضوعي لا يوجب هذا مطلقاً. لأن إسباغ صفة الأزلية والخلق إلى المادة -حاشا لله- يعني التزام الطرف المعارض والمخالف، وهذا لا يليق بالفكر العلمي والموضوعي. ثم إن إنكار الله تعالى -حاشا ألف ألف مرة- وقبول عدم وجوده يكون قبولاً للنفي، واثبات هذا يرجع إلى الشخص النافي. بينما لا يمكن إثبات النفي.

لذا لا يمكن مطلقاً إنكار وجود الله تعالى، ويبقى هذا زعماً دون أي دليل. وفي مقابل عدم وجود أي دليل ينفي وجوده تعالى، هناك أدلة لا تعد ولا تحصى على وجوده. ولا يمكن عدم رؤية هذه الأدلة إلا إن قام الشخص بإنكار وجود نفسه وإنكار وجود الكون كما فعل السوفسطائيون. وهذا وهم واضح يوجب التخلي عن العقل وعن الحياة ومغالطة بينة ولا شيء غيرهما. إن مجرد ادعاء هذا الوهم والدفاع عنه والتزامه يكفي برهاناً على الوجود.

ولكن على الرغم من كل هذه الحقائق الجلية نجد أن العديد من الناس فقدوا إيمانهم أو ساورتهم الشكوك حول الكثير من الحقائق التي كانوا يؤمنون بها. ونظراً لاستخدام نظرية التطور في هذه السبيل ولهذا الغرض رأينا في سبيل ردّ نظرية التطور ونقضها إثبات أن المادة ليست أزلية وليست خالقة. ولكي نقوم بهذا كان علينا أن نتناول باختصار الزعم القائل أن الوجود بأكمله يستند إلى المادة، وهو أجهل زعم طوال ما عرفه التاريخ من مزاعم.

نود أولاً أن نذكّر بأن التطوريين -سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا- يتوهمون مكاناً لانهائياً. لأن إسباغ صفة الأزلية على المادة، وسحب بداية التطور إلى زمن غير معلوم ضمن هذه الأزلية، يعني إسباغ صفة الأزلية على المكان، لأنه لا يمكن التحدث عن الزمان وعن المكان بشكل منفصل، لارتباط أحدهما بالآخر.

إن الزمن يملك وجوداً اعتبارياً (اسمياً)، والمكان هو الذي يجعل الزمـــان بعداً للأشياء وللحوادث. بدون المكان لا يكون للزمان وجود. أما ما نطلق عليه اسم المكان فهو عبارة عن عالم المادة، أي عالم الذرات. لذا فعندما تتم البرهنة على عدم أزلية المادة، يظهر أمامنا عدم أزلية المكان والزمـــان. وأي شيء لا يملك صفة الأزلية لا يمكن أن يكون خالقاً ولا أن يظهر للوجـــود بنفسه تلقائياً.

ثم إن القـــانون الثـــاني للديناميكيـــة الحراريـــة (الثرموديناميـــك Thermodynemic) الذي أصبح معروفاً من قبل الكثيرين ينفي أزلية المادة. إن القانون الأوّل للديناميكية الحرارية هو حول حفظ الطاقة. أما القـــانون الثاني فهو قانون كارنوت المشهور. وحسب هذا القانون فإن الجسم الحـــار يبعث الحرارة حواليه حتى يأتي يوم تنتهي فيه هذه الحرارة.

كما أن مصادر الضوء والطاقة تبعث الضوء والطاقة حواليها حتى يـــأتي يوم تتساوى فيه الطاقة في جميع أرجاء الكون، فيقف انتقال الطاقة. وهـــذا وإن كان لا يعني فناء الطاقة، إلا أنه يعـــني المـــوت ويعـــني زوال الزيـــادة والنقصان في الكون. وضع كارنوت هذا القانون نتيجة مشاهداته وتجاربـــه عندما كان يغلي الماء في بيته، وعندما كان يلاحظ حـــرارة مدفأتـــه. ثم تم توسيع تجاربه هذه وربطها من قبل كبار العلماء بنظام معين، ويـــتم اليـــوم تدريس وتعليم هذا القانون باسمه.

لا يمكن اليوم ذكر شيء أكيد حول تأثير الديناميكية الحرارية الكلي في الكون. ولكن يمكن القول بأن الكون ليس كتلة واحدة صلدة، بل يتـــألف من أجزاء. وما يجري على جزء منه يجري على الكل فيـــه. وقـــد دلّـــت التجارب والمشاهدات في هذا الميدان بأنه إن لم تقم القيامة قبله بسبب مـــن الأسباب، فإن القيامة الناتجة عن قانون الثرموديناميك (الديناميكية الحرارية)

ستقع حتماً، أي ستنفد الطاقة في الكون وينهار النظام System فيه.[١] وقد يتساءل البعض عن العلاقة الموجودة بين عدم أزلية المادة وبين هذه القيامة الثرموديناميكية، أو ما الطعنة التي توجهها هذه العلاقة إلى أزلية المادة والزمن؟

لنبين أولاً بأن الظاهر هو أن الذين يقولون بأزلية المادة لا يعرفون معنى الأزلية. فلو وضعت أصفاراً بعدد رمال جميع الصحارى في الأرض أمام الرقم واحد، لعدّ هذا الرقم الهائل صفراً بالنسبة للأزل. وكذلك الأمر بالنسبة لأكبر عدد يمكن أن يتفتق عنه ذهن الإنسان أو يستطيع التفكير فيه أو تخيله فهو أيضاً يعد صفراً بالنسبة لمفهوم الأزل. لأن الأزل يعني اللانهاية. والشيء الأزلي يتصف بما يأتي:

لا يكون مركباً، ولا يتركب. بل يكون بسيطاً وغير قابل للتجزئة. لا يتغير ابداً، ولا يمكن التدخل فيه. يكون خارج الزمان والمكان، أي يكون خارج كل حركة متعلقة بالزمان والمكان. يكون أبدياً، لأنه في جميع الأحوال خارج الزمان. ولكون الأزل والأبد خارجَي الزمان، فهما يلتقيان في نقطة واحدة بوجه من الوجوه. ولا توجد أي خاصية من هذه الخواص في المادة. فالمادة متغيرة، ولا يمكن تصورها خارج نطاق الطاقة حسب ما يقرره قانون الديناميكية الحرارية (الثيرموديناميك). كما أنها صالحة لكل نوع من أنواع التراكيب. ثم إنها موجودة تحت قيد الزمان والمكان.

وفي مقابل هذا نرى أن علماء الكلام يقولون في حق الله تعالى: (ما ثُبت قدمُه امتنع عَدَمُه)، وهذا يشير إلى أن المادة لا يمكن أن تكون منشأً للوجود، كما يشير إلى صفات الذات العلوية التي يجب إسناد الوجود إليها.

---

(١) يقول العلماء إن هذا القانون يشير إلى أن الحرارة تنتقل من الجسم الحار إلى الجسم البارد، وأن هذا الانتقال يستمر حتى تتساوى درجة الحرارة بين الجسمين. فإن طبقنا هذا القانون على الكون نرى أن النجوم ستستمر في نشر الضوء والحرارة حتى تتساوى الحرارة في أرجاء الكون، مما يؤدي إلى توقف انتقال الحرارة والطاقة. وهذا يعني موت الكون حرارياً. (المترجم)

يتألف المكان بالمقياس الصغير من الذرات، وبالمقياس الكبير من النجوم. وفي شمسنا -التي هي نجم من هذه النجوم- يتحول ٥٦٤ مليون طن من الهيدروجين إلى هيليوم في كل ثانية، وهكذا تنشر حواليها طاقة كبيرة بشكل ضوء وملايين السعرات من الحرارة. ويصل جزء من هذه الطاقة إلى الأرض وإلى جميع المنظومة الشمسية. ويتألف الكون من أمثال هذه الشموس. وفي يوم من الأيام ستنفجر شمسنا بقوة لامركزية انفجاراً مرعباً جداً عندما ينفد وقودها، تعقبه حركة انكماش مركزية وتقلص. أي لا تستطيع بعده مد أسباب الحياة للأرض، أي ستكون القيامة قد قامت.

وبما أن الكون يتالف من أمثال هذه الشموس كلبنات أساسية له، فلا يمكن تصور أزلية هذه الشموس التي تتجه الطاقة فيها إلى النفاد. لأن الشيء الأزلي -كما ذكرنا سابقاً- لا يكون مركباً، لأنه لا يدخل تحت دائرة الزمان والمكان، لذا لا يتعرض إلى النقصان وإلى النفاد، ولا يحصل عنده أي تغير مهما كان ضئيلاً.

بينما نرى أن المادة والعالم المادي في تغير مستمر، وفي تغير دائم من حال إلى حال، ويتعرض إلى الانحلال والتفكك ثم التكون من جديد، أو تكون هي سبباً في التفكيك والتغيير. لذا فهناك بداية للمادة ونهاية لها، وهي محكومة بقيود الزمان والمكان. وكل ادّعاء خارج هذا يعدّ ادعاء وفرضية لا نصيب لها من الصحة. ويعترف دارون نفسه بعجزه في هذا الموضوع وضعفه فيقول: (نظراً لأنني لم أكن موجوداً في العهود التي عاشت فيها هذه الأحياء شعرت بضرورة تقوية هذه المسألة ببعض الفرضيات).

والفرضيات، وإن كانت تستند إلى بعض المعلومات الأولية تعني آراء ووجهات نظر لم تتم تجربتها. فكما قدم دارون فرضيته هذه يمكن لي أن أقدم فرضية بأن إنساناً استطاع -بفضل حركة أرضية ما- أن يقفز عشرة آلاف متر و لم يحدث له شيء. فهذه أيضاً فرضية، فإن اعترضت عليّ وقلت

بأن الإنسان الذي يقفز عشرة آلاف متر سيموت من قلة الأوكسجين قمت بتقوية فرضيتي فأقول: "أنتم تتحدثون عن الشروط الحالية، ولكن الشروط كانت مختلفة في عهد من عهود الأرض، لذا تيسر وقوع هذا الأمر". فإن كانت فرضيتي هذه غير علمية ومجرد زعم فلا يوجد هناك فرق في هذا الصدد في ادعاءات نظرية دارون أو في الداروينية. إن التطور فرضية تقوم بتكذيب جميع القوانين السارية الأخرى في الكون وفي الحياة، وتقوم بملء جميع الثغرات والفجوات الموجودة فيها بفرضيات أخرى. لذا فلا تحمل قيمة أخرى خارج هذا النطاق.

هل المصادفة ممكنة؟

وهل تستطيع تفسير الوجود؟

إن الذين يحاولون إظهار نظرية التطور وكأنها حقيقة علمية ويحـاولون إبقاءها واقفة على قدميها يستندون إلى تجربة ميللر ويذكرون بأن الظروف التي كانت سائدة في الأرض في عهد من العهود الـسابقة أدّت إلى تـراكم البروتينات في البحار، وأنه نتيجة للتفاعلات الكيميائية التي حدثت ظهـرت الأحماض الأمينية. وقد حدثت كل هذه الأمور تلقائياً كما يزعمون.

ولكن العالم الروسي أوبرن اعترف بعد عشرين سنة من المحـاولات في المختبرات الكيميائية الحديثة لصنع خلية حية قائلاً: (من المستحيل صنع خلية حية من المواد الكيميائية حتى في أرقى المختبرات الكيميائية وأكملها). ولكن التطوريين لا يعيرون اهتماماً لهذا الاعتراف. بينما نعلم بأن العمـر الحـالي للأرض لا يكفي لصنع حامض أميني واحد، بل حتى جزيئة بروتين واحـدة عن طريق المصادفة العشوائية، بل يحتاج إلى أضعاف أضعاف هذا العمر.

فإذا لم يكن العمر الحالي للأرض كافياً لتشكيل حامض أميني واحد ولا لتشكيل جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفة فكيف تيسر إذن ظهـور الخلية الحية؟ وكيف كان عمر الأرض كافيا لهذا؟

إن وجود الحياة على سطح الأرض مرتبط بتوازنات عديـدة وشـروط دقيقة. أولاً يجب توفر جميع الشروط اللازمة للحياة في سطح الأرض، فنحن

نعيش على كرة أرضية تبعد عن الشمس ١٤٩,٥ مليون كم. وحتى هـذه المسافة لا يمكن أن تكون نتيجة مصادفة أبداً. ومحور الأرض يميل بمقدار ٢٣,٥ درجة. ومقدار الميل هذا -الذي يشكل أهم عامل في تشكيل الفصول- لا يمكن أبداً أن يكون نتيجة مصادفة. كما أن الغلاف الجوي المحيط بكرتنا الأرضية يتألف من ٢١ % من الأوكسجين من مجموع الغازات المكونة لهذا الغلاف، ولا يمكن تفسير وجود هذه النسبة المثالية بالمصادفة أيضاً.

ونحن نعرف من حسابات الاحتمالات أنه إن رمى شخص أعمى إبرة على الأرض فإن احتمال أن تدخل الإبرة الثانية التي سيرميها في ثقب الإبرة الأولى يبلغ ١%. ولكن علم الرياضيات لم يكتشف بعد نسبة الاحتمال في أن تدخل ١٠٠٠ إبرة مرمية على الأرض الواحدة منها في ثقب السابقة بالتتابع. بينما نسبة الاحتمال في بلوغ الكون والكرة الأرضية وضعهما الحالي عن طريق المصادفات أقل بكثير من الاحتمال السابق. إن إعطاء أي احتمال لهذا الأمر ليس فقط يعد خارجاً عن السلوك العلمي فحسب، بل إن القول بهذا الاحتمال ينقض العقل السليم ويعاديه. يقول "جيمس جينز" حول هذا الموضوع:

(لكي تأخذ الأرض وضعها الحالي عن طريق المصادفات فعليك أن تأخذ جميع رمال الكرة الأرضية في يدك ثم تنثرها. إن احتمال أن تكون ذرة من هذه الرمال الشمس، والأخرى الأرض والأخريات الأشياء الموجودة على الأرض كل منها في موضعها الصحيح، هي نفس نسبة الاحتمال في أن تصل الأرض إلى وضعها الحالي عن طريق المصادفات).

ولا ينتهي موضوع ظهور الحياة على الأرض، ووصولها إلى وضعها الحالي، بكون الأرض على بعد ١٤٩,٥ مليون كم من الشمس. فهناك مسألة كثافة الغلاف الجوي، وتصفيته للإشعاعات الشمسية والكونية،

ومسألة إحراقه للشهب والنيازك، ومسألة سمك القشرة الأرضية زيادة ونقصاناً من ناحية ابتلاعها الغازات[1] ومسألة امتصاص البحار للغازات السامة مسائل أخرى.

وكذلك وجود التعاون بين النباتات والحيوانات، فالنباتات تطلق ثاني أكسيد الكربون في الليل، وتستهلكه في النهار. كما أن هناك القيام بعملية التمثيل الضوئي الضروري للأثمار، ووجود برنامج في بذرة التفاح يساعد على تحول هذه البذرة إلى تفاح وإلى نمو البذرة وتحولها إلى شجرة، وإلى ظهور الأوراق وتفتح البراعم عن الزهور مكوناً الثمرة. وإلى جانب هذا نرى وجود تعاون كامل بين هذه البذرة وبين الشمس والماء والهواء.

والخلاصة أن الكرة الأرضية والحياة الموجودة عليها تتطلب آلية مذهلة وعلماً وإرادة وشعوراً وقدرة بحيث يستحيل هذا على المصادفات العشوائية، وعلى المادة الصماء والعمياء والخالية من الحياة ومن الشعور ومن العلم. إن إسناد هذا الأمر إلى المصادفة أو إلى المادة أو إلى أي كائنات أخرى يعد إنكاراً للعقل وللإنصاف وابتعاداً عنهما.

وكمثال آخر: لندخل إلى صيدلية أو إلى مصنع للأدوية طلباً لدواء معين. نجد أن جميع الأدوية -ومنها الدواء المطلوب من قبلنا- موجودة على الأرفف، وأن جميع المواد اللازمة لهذه الأدوية موجودة داخل القناني. فهل هناك عاقل يتصور أن في الإمكان أن تهب ريح فتسيل هذه المواد وتكون الأدوية المطلوبة بالمقادير الدقيقة المطلوبة لكل دواء؟ أو أن يحدث هذا بأي تأثير خارجي أو من قبل هذه المواد نفسها؟ علما بأن المواد المطلوبة موجودة في مثالنا هذا ومتوفرة وموضوعة داخل القناني. وبما أن المواد موجودة فما على المصادفة سوى معرفة الدواء المطلوب من قبلنا، أو فهمها لكلامنا

---

(١) يشير المؤلف إلى أن سمك قشرة الأرض سمك مناسب جداً فلو زاد سمك القشرة الأرضية عن الموجود حالياً لامتصّت نسبة كبيرة من الاكسجين مما يحول دون ظهور الحياة على الأرض. ولو قل هذا السمك لزادت نسبة الزلازل وشدتها. (المترجم)

ولطلبنا، ثم القيام بإسقاط هذه القناني وسكب المواد الموجودة فيها وجمعها بالمقادير الصحيحة لتكوين الدواء المطلوب.

بينما إن نسبنا الوجود إلى المصادفات، أو قلنا إنه تشكل من نفسه، أو أسندناه إلى الطبيعة أو إلى المادة، فإنه لكي يتكون هذا الدواء من مختلف المواد من نفسه، يجب على المواد العديدة المكونة له أن تظهر إما تلقائياً أو من قبل الطبيعة أو بتوجيه من المادة. وعلاوة على هذا يجب وجود إنسان - أي صاحب حياة وشعور وعلم وإرادة وقوة- يقوم بوضع هذه المواد في القناني ويرتبها فوق الرفوف، ويصنع المصانع. ويجب أن يظهر هذا الإنسان من قبل الطبيعة أو المادة أو المصادفات أو يظهر تلقائياً إلى مسرح الحياة.

ونتساءل: أي صاحب عقل يمكن أن يقبل إمكانية حدوث كل هذه الأمور؟ ولكن كم من المؤسف أن نرى أن الذين يسندون الوجود إلى التطور أو إلى الطبيعة أو إلى المصادفات يؤمنون بمثل هذه الخرافات في سبيل شيء واحد وهو إنكار وجود الله.

قد يرد الاعتراض الآتي: إن العلم لا يستند إلى العقيدة أو الإيمان، بل يستند إلى المعطيات الموضوعية لكي يهيء المستقبل وينتج التكنولوجيا. ونحن نقول: حسناً!.. إن الوجود يوجب بشكل واضح وجوب وجود شعور وإرادة وتخطيط وعلم وعناية وقدرة. وكل هذا يشير إلى أدلّة لا حصر على وجود الله تعالى، لذا فأي كسب نكسبه للعلم إن ربطنا منشأ الوجود بالمادة أو بالطبيعة أو بالمصادفة أو بالظهور التلقائي أو بغيرها من الخرافات؟ واي خسارة للعلم إن قبلنا بحقيقة وجود الله، ثم استمررنا بجهودنا العلمية؟

وفي الحقيقة فإن ذرة واحدة، وخلية واحدة فقط -دعك من الكون كله- تكفي دليلاً على وجود الله تعالى المتصف بالقدرة المطلقة وبالإرادة وبالعلم اللانهائي. لأن أجزاء الكون متداخلة بعضها ببعض -مثل جسم الإنسان- تداخلاً كبيراً وتعرض أمام الأنظار وحدة متكاملة تمام التكامل،

بحيث إن من لا يستطيع خلق الكون لا يستطيع خلق ذرة واحدة. والعلماء الحقيقيون يرون هذا ويعترفون به. وقد سرد إنعام الله -وهو شخص باكستاني- إحدى ذكرياته مع العالم سير جيمس جينز الذي أقدره كثيرا فقال:

(كنت في أمريكا، وكنت كثيراً ما ألتقي مع سير جيمس جينز. وفي أحد الأيام كنت في الشارع فإذا بالمطر يهطل غزيراً، ورأيت الأستاذ جيمس يهرع نحو الكنيسة وشمسيته مطوية في إبطه. توجهت حالاً نحوه بصمت، وقلت: "يا أستاذي!... الظاهر أنكم مشغولون ذهنياً، لأن المطر يهطل وشمسيتك تحت إبطك". رجع إلى نفسه وكأنه أفاق من نوم. كان بصره شاخصاً وكأنه يرمي ببصره إلى أفق بعيد... كانت نظرته عميقة. وعلى إثر كلامي فتح شمسيته. سرنا معاً. وعندما علمت أنه ذاهب إلى الكنيسة قلت له: "كيف تذهب إلى الكنيسة مع أن الكثيرين كلما توغلوا في العلم ابتعدوا عن الكنيسة."

كان مشحوناً جداً، وزاد كلامي من ضرام أحاسيسه. لم يجبني على سؤالي، ولكنه قال: "يا إنعام الله! تعال غداً إلى بيتي لتشرب معي الشاي ونتحدث".

في اليوم الثاني توجهت إلى بيته وضغطت على جرس الباب، قابلني صبي نوراني الوجه وأخبرني بأن والده هيأ الشاي في غرفته وهو ينتظرني. عندما دخلت عالمه الداخلي ذرفت عيناي دموع شفقة كانت قد تجمعت كسحاب تنتظر باعثاً أو عذراً للانهمار... جلست بجانبه، وبدأ يتحدث.

تحدث عن خلق الأرض وكيف جُعلت صالحة للحياة. كان عندما يتحدث عن الإجراءات الإلهية ينفعل ويكاد يغيب عن نفسه. تحدث عن الغيوم السديمية، وكيف أنها تطيع إرادة معينة في هذا الكون الواسع، وتحدث عن توسع المكان، وتحدث عن الإجراءات الإلهية في جميع هذه الأمور. كان

يتحدث أحياناً عن حقائق العالم الكبير (الكون)، وأحيانا عن العالم الصغير (الذرة) وكأنه يفسر قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣). وبلغ منه التأثر حيناً مبلغاً كبيراً فقال: "يا إنعام الله! إنني مندهش: كيف يتسنى للإنسان أن يطلع على هذا الكون الواسع الشاسع ويلم بقوانينه ثم لا يؤمن بالله؟!. إنني مندهش". كانت اللحظة المناسبة قد حانت تماماً، فقلت له: يا استاذي أتسمح لي؟ قال: تفضل. قلت: "هناك آية في القرآن، يرد فيها قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨). عند ذلك بلغ منه التأثر غايته، وقال: "أهذا هو ما يقوله محمد؟ إن كان هذا هو ما يقوله فاشهد يا إنعام الله أنه رسول الله".

أرجو أن تتفكروا لحظة! هذا الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات وأعقلها وأكثرها قابلية وذكاء بينما لا يستطيع أن يرسم مربعاً مساوياً تماماً لمربع سبق وإن رسمه، بل لا يستطيع حتى رسم خط مستقيم مساو تماماً -دون استعمال آلة قياس- لخط سبق وإن رسمه... كيف يستطيع هذا الإنسان أن يدعي بوجود أي احتمال لظهور سلاسل الأحماض الأمينية، أو جزيئة من جزيئات البروتين أو خلية من الخلايا، أو عضو من الأعضاء، أو كائن حي أو عضو في الجسم تلقائياً أو نتيجة المصادفات ضمن هذا التعقيد الشديد والمتداخل للأحياء؟! ثم كيف يمكن بعد هذا الادعاء -وسط كل هذه الاستحالات المتداخلة بعضها مع البعض الآخر- بأن سلسلة من الأحماض الأمينية أو أي كائن صغير تخيلنا ظهوره يمكن أن يتطور إلى أحياء معقدة ضمن بوتقة التطور؟!

إن أكثر المتفائلين في هذا الموضوع يرون -من زاوية الزمن- أن عمر الأرض لا يكفي لظهور سلسلة من الأحماض الأمينية. فمن حق الإنسان أن

يتساءل اذن: هل تم التطور في العالم الآخر، وأنه بعد أن نضج واكتمل جاء إلى أرضنا وأعطى ثمرته؟ فإن لم يكن هذا هو ما حصل فكيف اكتسب هذا الوجود الرائع جماله الأخاذ وروعته وفخامته ودقته تاركاً وراءه الفوضى والاضطراب ومتجاوزاً له؟ وكيف استطاعت الحياة تسجيل هذا النجاح والوصول إلى مثل هذا الوجود الرائع على الرغم من وجود قانون الانتروبيا؟ وكيف ظهرت هذه الملايين من أنواع الأحياء تلقائياً إلى الوجود؟ وكيف استطاعت الأشياء تحدي القانون الثاني من الديناميكا الحرارية الذي يمنع اتجاه الأشياء من الفوضى إلى النظام، ومن البساطة إلى التعقيد وإلى الروعة الفنية؟

وهل نستطيع الاجابة على كل هذه الأسئلة إجابات متمشية مع روح العلم؟ أم نتهرب من الإجابة ونقول مثلما يقول بعضهم: "لقد حصل التطور وإن كنا لا نعرف كيف حصل، ولا حاجة هناك إلى إثبات هذا الأمر"؟! وأنا أريد أن أسألكم: هل نستطيع إذن أن نتجاوز شواهق وذرى الفن البادية في كل مخلوق من المخلوقات بيالونات المصادفة؟!

إن وجود الشفرات في أجساد الكائنات الحية اعتباراً من أصغرها إلى أكبرها منذ البداية، ووجود تخطيط رائع ومدهش في جزيئات D.N.A و RNA هذا التخطيط الذي يوجه وظائف الكائن الحي اعتباراً من أصغر وحدة في الكائن الحي وأبسطها إلى أعقدها، والذي يعمل بنظام رائع متبعاً سلم المسؤوليات والتخصصات وباذلاً خدماته للكائن الحي يجعل من المستحيل إيضاحه بالمصادفات. فهل نستطيع أن نعزو هذا النظام إلى قيام الذرات بالتفاهم بعضها مع البعض الآخر؟

ونحن نرى أنه حتى الحاسوب الالي (الكومبيوتر) لا يعمل إلا بعد تشفير برنامج خاص فيه من قبل المبرمج. فهل هناك أي احتمال لأن تقوم الأجزاء الصغيرة في هذا الجهاز بكل هذه الأعمال الخارقة تلقائياً ومن نفسها؟ وهل من الممكن الدفاع عن هذا باسم العلم؟. ولو فرضنا المستحيل وقلنا بإمكانية

حدوث هذا في مستوى المادة فكيف نستطيع ذكر الشيء نفسه في الأجساد المعقدة والمركبة للأحياء، وكيف نستطيع تجاوز المستحيلات العديدة في هــذا الصدد؟

إن العلم يفتح في الحقيقة أبواب الإيمان ويأخذ بيد الإنسان نحو الله. أما العلم الذي لم يستكمل أدواته و لم يصل بعد إلى كنهه، والذي طبع بطــابع الغرور وبزاوية نظر خاطئة، واتحد مع الظلم وتلبس به فإنه يقود إلى الكفر. إن الذين لم يدركوا بعدُ ماهية العلم والذين يظهرون على مسرح العلم من بابه الخلفي، والذين تأخذهم نشوة وغرور العلم ويحسبون أنهم كــسبوا في السباق، يتحولون وقد أخذهم سكرة النصر وحولتهم إلى تمثال للغــرور، لا يدركون بأنهم في جهل مكعب -كما قال ضياء كوك آلــب- لأنهــم لا يعلمون أنهم لا يعلمون، ويحسبون أنهم يعلمون.

الظهور التلقائي

عندما قام "شمس الدين كون آلتاي" بنقد هيجل عن حق في هذا الموضوع في كتابه "الفلسفة العليا" قال: (يتكلم هيجل عن عشرين جيل من الأحياء المتعاقبة في قاع البحر. ويورد هذا المسكين أسماءها وكأنه كان يعيش معها، ويعطي رأيه حول أشكالها).

ونظراً لعجز المنظرين لنظرية التطور في تفسير كيفية ظهور الحياة نراهم يتشبثون بالمصادفة وبالظهور التلقائي. فهم يزعمون أن الجو البدائي للأرض كان يحتوي على كميات كبيرة من الأمونيا والميثان وبخار الماء والهيدروجين، وأن هذا الخليط تفاعل مع بعضه البعض بواسطة الطاقة المنبعثة عشوائياً من البروق ومن الانفجارات البركانية، ونتجت بعض أنواع من الحوامض الأمينية عن هذه التفاعلات. وبمرور الزمن تحولت هذه الأحماض الأمينية إلى بروتينات، ثم سالت جزيئات البروتينات هذه إلى البحار. ومن ثم ظهرت الأحياء الأولى في المستنقعات بشكل ديدان بدائية.

تجارب ميللر

استعمل أنصار التطور تجارب ميللر وكأنها دليل على حدوث مثل هذه التفاعلات. بينما كل ما فعله ميللر كان عبارة عن قيام إنسان يملك علماً وشعوراً وإرادةً بتجربة للحصول على خلية حية بمساعدة أحماض أمينية قام باختيارها. كان من الضروري في هذه التجارب دوام التزويد بالطاقة المسيطر عليها لكي يظهر كائن حي (أي خلية حية) أول، ثم لكي يستمر في الحياة. والشيء الأهم هنا هو الحفاظ على الأحماض الأمينية المتشكلة من التحلل، وجمعها معاً ضمن مصيدة باردة وضعت خصوصاً لهذا الغرض.

فإن كانت هناك قابلية لدى الأحماض الأمينية للانقلاب إلى الحياة -علماً بأن الله تعالى وحده الذي يهب الاستعداد للحياة- فإن الإنسان الذي يملك المعرفة والإرادة يستطيع تحريك هذا الاستعداد وتنشيطه. ولكن الزعم بأن كل هذا يحصل نتيجة المصادفات ونتيجة الظهور التلقائي يعدّ بلا شك استهزاءً بالعقل وبالإرادة.

التغذي الذاتي والخارجي

يزعم التطوريون أن الأحياء التي ظهرت إلى الوجود تلقائياً أو عن طريق المصادفات تستطيع تأمين الطاقة التي تحتاج إليها لإدامة حياتها من الشمس أو من التفاعلات الكيميائية. ثم إن الأميبيا كما تستطيع التغذي من بيئتها، تستطيع كذلك صنع غذائها بنفسها. ويحاول التطوريون تقوية زعمهم هذا بفرضية "الأوتوروف" أي التغذي الذاتي، أو "الهيتوتروف" أي التغذي من البيئة الخارجية. أما فرضية التغذي الذاتي فلم تلق قبولاً في أيامنا الحالية. والتفاعلات الكيمياوية التي تنتج الغذاء "كالتمثيل الضوئي" أمر معقد غاية التعقيد. وعندما ندقق التفاعلات المعقدة التي تقوم بها النباتات الخضراء التي تملك قابلية التمثيل الضوئي، وكذلك الانزيمات التي تلعب دوراً مهماً في هذه التفاعلات، نعرف من يحتاج لمن، وإلى أين يجب أن يسير كل شيء من هذه الأشياء. أي ندرك أن كل شيء يسير وفق منهج دقيق ومتكامل.

لقد وقع التطوريون في ورطة كبيرة عندما ادّعوا بأن مثل هذا النظام الدقيق والرائع ظهر فجأة إلى الوجود عند بداية ظهور الحياة على وجه الأرض، لأن مثل هذا الادّعاء يناقض ادّعاء التطور. لأن مثل هذه التفاعلات المعقدة والمتشابكة لا يمكن أن تصدر إلا من قبل آلية معقدة. ومن المفروض أن تظهر هذه الآلية الدقيقة والمعقدة في الظروف الأولية لظهور الحياة لكي يحصل الكائن الحي على الغذاء الضروري له، بينما يتناقض هذا تماماً مع أساس الداروينية. لأن الظهور الفجائي لآلية معقدة جداً مستحيل. لأن

التكامل أيْ النظرية التطورية تقضي بظهور هذه الآلية بشكل تدريجي وبطيء. والأبحاث التي أجريت أبانت -دع عنك ظهور النباتات المالكة لآلية معقدة مثل التمثيل الضوئي- بأن مئات الآلاف من أنواع الحيوانات الموجودة حالياً كانت موجودة في أكثر العهود قدماً التي استطاعت هذه الأبحاث التوغل فيها، و لم يشاهد فيها أي حادثة تطورية. أي أن التطور يحتاج إلى زمن طويل لا نستطيع تصور طوله. لذا لم يكن عمر الأرض كافياً لظهور الحيوانات والنباتات وتطورهما حتى الوصول إلى ظهور الآلية التي تقوم بصنع الغذاء بنفسها.

أما حسب فرضية "هتروتروف" فإن الغذاء غير جاهز للكائن الحي، ولا يستطيع الكائن الحي صنعه بنفسه، بل يأخذه من الخارج. بينما يحتاج هذا أيضاً -مثله في هذا مثل الأوتوروف- إلى آلية تستطيع إنتاج تفاعلات معقدة. لأن الغذاء الذي سيأخذه أيّ حي من الأحياء يجب أن يكون مادة عضوية صنعت من قبل حي آخر. لذا كان كل حي -ولنقل الحي الأوّل الذي ظهر على وجه الأرض- يحتاج إلى وجود حي آخر قبله. وهذا يؤدي إلى تسلسل، أي إلى سلسلة متراجعة إلى الخلف على الدوام مما يقتضي أزلية الأحياء. وهذا أمر باطل ومستحيل.

قوانين الوجود

هذا بالإضافة إلى أننا نشاهد في ظهور جميع الأشياء في الكون سـواءً في عالم الأحياء أو في عالم الجماد شعوراً وعلماً وترجيحاً، أي إرادة. وبينما نرى عبيد الطبيعة والعلماء الماديين يعزون هذا الوجود إلى الظهور التلقـائي أو إلى المصادفات العمياء نراهم من جهة أخرى يؤمنون بالقوانين. بينما تقوم القوانين بردّ الظهور التلقائي وردّ المصادفة. إذن فالوجود لابد أن يكون أثراً لصاحب علم. ولا تملك المادة الخالية من الحياة ومن الشعور قوانين شـاملة للكـون وشاملة للحياة وللشعور. إن وجود القوانين يقتضي وجـود واضـع لهـذه القوانين. إن عدّ القوانين -دون أخذ واضع هذه القوانين بنظـر الاعتبـار- أساساً للوجود يشبه المثال الآتي الذي ضربه أحد المفكرين المرموقين:

"دخل رجل أحمق إلى قصر كبير، فرأى أن هذا القصر المنيف قد زيـن وأثث بأفخم أثاث وأجمله، فهناك الطنف والمناضد والكراسـي والفـرش والمزهريات والورود واللوحات الفنية والمدافئ، وما يحتاجه المطبخ من أشياء وأغراض... والخلاصة وجد كل شيء في مكانه الصحيح. وبينما كان هذا الرجل الأحمق يتجول في أرجاء القصر ويفكر بمن قام بكل هـذا التأثيـث والتزيين، ولكنه لم يجد أحداً، وإذا به يرى كتاباً فوق منضدة. كان الكتاب يحتوي على برنامج تأثيث القصر. قال الأحمق: لقد وجدت ما كنت أبحث عنه... هذا الكتاب هو الذي قام بتأثيث هذا القصر."

وهل هناك من أحد لا يطلق صفة الجنون على شخص يسند تأثيث قصر

من القصور إلى كتاب تعريف بالأثاث، أو يسند صنع أي ماكنة أو جهاز إلى نشرة تعريف الجهاز أو الماكنة؟

وبينما هذه هي الحقيقة بأوضح شكل، فإنني لا أفهم على الإطلاق كيف يمكن لشخص تخصص بعد التخرج من الجامعة في الفيزياء أو في البيولوجيا (علم الأحياء) أو في الكيمياء، أو في الكيمياء الحيوية وأصبح استاذاً أن يسند هذا الكون الرائع وما يحتويه من زينة، وما يبدو فيه من تصميم دقيق، ووجود كل شيء في المكان والموقع الصحيح، وما يحتويه من تناسق وتناغم أصيل لا يفسد ولا يهتز ولا يحتاج لأي تعمير أو اصلاح... أن يسند كل هذه الروعة إلى المادة الخالية من الحياة ومن العلم ومن الشعور والإرادة، أو إلى بعض المفاهيم التي يطلق عليها اسم القوانين التي تم اكتشافها عند دراسة هذا الوجود وكيفية ظهوره وكيفية عمله. أو أن يسنده إلى المصادفات التي هي مفهوم مجرد، أو يعزوه إلى الظهور التلقائي.

اصطفاف البروتينات والأحماض الأمينية

يقول العالم السويدي المشهور "جارلس ايجون كوي Charles Eugenie Guye":

"تتألف جزيئة البروتين من ٤٠,٠٠٠ ذرة. لذا فنسبة احتمال ظهور جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفات هو احتمال واحد من احتمالات كبيرة وهائلة جداً تبلغ ١٠^{٦٠}".[١] أترون؟... علماً بانه عند الأحياء لا نجد جزيئة بروتين واحدة، بل سلاسل من البروتينات. ويقول "الدكتور لوكونت دي نوي Dr. Lecomte de Nouy" عن احتمال ظهور سلسلة واحدة من البروتينات عن طريق المصادفة:

"لا يمكن التعبير عن ظهور سلسلة من البروتينات عن طريق المصادفات إلا باحتمال واحد ضمن رقم هائل من الاحتمالات يبلغ رقم ١٠ أس ٢٤٣.[٢] ولكن الإنسان لا يتألف من سلسلة واحدة من البروتينات، لأن الإنسان يتألف من ٦٠ تريليون خلية. وترتبط هذه الخلايا ببعضها بروابط قوية بحيث إن فساد عضو أو نظام واحد لهذه الخلايا قد يؤدي إلى موت الإنسان. وحياة الإنسان مستمرة ضمن استمرار هذه العلاقات الحساسة

---

(١) أي إن نسبة الاحتمال = ١/ ١٠^{٦٠} ويساوي الرقم واحد مقسوماً على عدد هائل هو رقم واحد وأمامه ستون صفراً. (المترجم)

(٢) أي إن نسبة الاحتمال = ١/ ١٠^{٢٣٤} أي العدد واحد مقسوماً على عدد عشرة لأس ٢٣٤. ومن المعروف في علم الرياضيات ان نسبة ١/ ١٠^{٥٠} (أي العدد واحد مقسوماً على عشرة أس خمسين) تساوي الصفر في الواقع لضآلته وصغره. (المترجم)

جداً والمتكاملة جداً. وعندما يتأمل الإنسان هذا النظام الدقيق الرائع لا يملك إلا أن يهتف من قلبه: "سبحانك!... ما أعظم شانك!!"

قبل تناول البروتينات ودورها في الكائنات الحية تأتي الأحماض الأمينية أولاً. تنتظم هذه الأحماض الأمينية في سلاسل معينة مشكلة البروتينات. ولكن البروتينات تحتاج إلى أشياء أخرى لتشكيل خلية حية. كل كائن حي عبارة عن نظام "System" من الجزيئات المتجمعة ضمن تصميم معين. ولكي يستمر في الحياة عليه أن يتغذى ويحصل على طاقة.

وعلم البيولوجيا المناصر للتطور يزعم بأن الكائن الحي الأوّل حصل على هذه الطاقة من الشمس، كما استفاد من البروق ومن الأشعة فوق البنفسجية. بينما نعرف بأن الكائن في أثناء تشكله وبعده يحتاج للتزود بنسبة معينة من الطاقة بشكل منتظم ودون انقطاع لكي يستمر في الحياة. بينما أشعة الشمس تكون موجودة في النهار فقط إن لم تكن هناك غيوم، ولا توجد في الليل، ثم إن جزءً كبيراً من السنة يكون شتاءً، لذا لا تكون الطاقة الآتية من الشمس منتظمة وبالمقدار نفسه. أما البروق فليست منتظمة في أي وقت. فهي تحدث مرة ثم تغيب. وعندما تبرق البروق تحرق وتهدم. وحتى لو افترضنا وجود نصيب من الصحة في هذا الادّعاء فكيف نفسر تنظيم العلاقة المزعومة بين أشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية والبروق وبين ظهور الكائنات الحية؟

التّغذي والنمو

لا يقتصر وجود المشاكل في موضوع ظهور الكائن الحي للوجود، بل إن موضوع تغذيته كذلك يحف به الكثير من المشاكل. إذ يجب على الكائن الحي تناول الغذاء لكي ينمو، ولكي يركب مواداً جديدة ضرورية، ليستطيع الاستمرار في البقاء حياً. وحسب ادّعاء التطور فإن الكائن الذي ظهر عن طريق التطور يضطر للتغذي على طريقة تغذي الاميبيا لكونه لا يملك بعد جهاز هضم ولا جهاز تنفس. ولكن حتى هذا مستحيل لسببين: الأوّل هو كثافة المحيط حواليه أي كثافة البيئة، أي يجب تعيير وضبط التوازن بين كثافة السائل الذي يوجد فيه الكائن الحي، وبين كثافة السائل الموجود داخل خلية الكائن الحي. وهذه مشكلة مهمة ودقيقة.

نحن نعلم أن الجزيئات المذابة تسيل نحو الجهة التي تكون أكثر سيالية، ولا تستطيع التوجّه نحو جهة ذات كثافة أكثر. وبالمقابل تسيل الأشياء الموجودة في الوسط الكثيف نحو الوسط الأكثر سيولة. وهذه قاعدة عامة، لذا فإن كان الجو المحيط بسلسلة البروتينات (الموجودة والمتهيأة لكي تنقلب إلى خلية حية) جواً سائلاً وقليل الكثافة فلا يمكن أن ينتقل أي شيء من هذا الجو إلى داخل الكائن الحي، بل تخرج المواد الغذائية الموجودة داخل هذا الكائن إلى الخارج، لذا سرعان ما يهلك هذا الكائن الذي كان مرشحاً للحياة. وإن كان الجو المحيط بهذا الكائن كثيفاً انسابت المواد منه إلى داخل هذا الكائن، فلا يبقى أمام هذا الكائن أي فرصة للتطور لأنه سينتفخ حالاً.

فإن كانت سيولة المحيط بنفس سيولة وبنفس كثافة المواد داخل هذا الكائن انقطع التبادل الغذائي بين هذا الكائن وبين محيطه، فلا يتحقق الامتصاص، فانسدت أمامه أبواب التطور.

والسبب الثاني: هو لو فرضنا وقلنا بأن هذا الكائن تشكل على الرغم من جميع هذه المستحيلات. إن هذا الكائن يحتاج -إضافة إلى ضرورة التغذي- إلى طاقة لنبذ فضلاته وطرحها خارجاً. فمن أين سيحصل هذا الكائن الذي خطا أولى خطواته في الحياة على الطاقة؟ لأنه من الضروري خلق الميدوكوندريات التي هي بمثابة محطات الطاقة في الخلية. وهذا الكائن الحي يحتاج في كل دقيقة وفي كل ثانية إلى الطاقة لا من أجل تناول الغذاء أو رمي الفضلات فقط بل من أجل استمرار في حياته. وبدون تزوده بالطاقة لا يمكنه الاستمرار في الحياة. لذا فما مبلغ صحة الادّعاء إذن بأن الكائن الحي يستطيع التزود بالطاقة من خلال حساء البروتين الموجود في قاع البحار؟

إن حسابات الاحتمالات تشير إلى استحالة انقلاب أي مركب كيميائي تحت هذه الظروف لا إلى كائن حي، بل حتى إلى سلسلة من السلاسل البروتينية. ولكن لِنَقُلْ بأن مثل هذا الكائن الحي قد تشكل وتكوّن، فهذا الكائن لا يبقى على شكله الأوّل بل يتطور. لذا كان من الضروري أن تتطور عنده أجهزة الهضم والدوران والتنفس والإفراغ (أيْ طرح الفضلات من غائط أو بول أو عرق) بشكل متناسق ومشترك. ولكي يستطيع هذا الكائن الحي الاستمرار في الحياة يجب ظهور هذه الأجهزة معاً وأن تتطور معاً، وأن تعمل بتعاون وتساند فيما بينها. وهذا يخالف ويناقض الفكرة التطورية لدى دارون، لأنها ترى استحالة ظهور مثل هذه الآلية المعقدة بشكل فجائي وفي وقت واحد.

والآن لنستعرض بعض المحالات الأخرى ونتناولها، فنفرض بأن أجهزة الهضم والدوران والإفراغ والتنفس لدى هذا الكائن الحي الأوّل قد تشكلت

تلقائياً وبشكل فجائي، وأن كائناً حياً على شكل دودة قد ظهر إلى الوجود في أحد المستنقعات حسب زعم دارون. هذه الدودة ستكبر طبعاً. فماذا سيكون عمرها؟ وهل سيكفي هذا العمر لكي تتطور وتنقلب إلى نوع آخر؟ وعندما تنقلب هذه الدودة إلى نوع آخر هل ستتشكل بعدها دودة أخرى؟ أم أنه ظهرت أعداد كبيرة من الديدان في أماكن عديدة من الدنيا وانقلبت مجموعة منها فقط إلى نوع آخر؟ لنقل بأن الدودة تطورت وانقلبت إلى ضفدعة، ثم انقلبت ضمن سلسلة من التطورات إلى حيوان الكنغر، وأن هذه السلسة استمرت وتتابعت حتى ظهور الإنسان، حيث صغرت الآذان لعدم الحاجة إليها مثلاً.

وهكذا ظهرت في الحياة مختلف أنواع الكائنات الحية. حسناً... ولكن عندما تطور فرد أو بضعة أفراد داخل كل نوع لماذا لم يتطور الأفراد الآخرون؟ وهل هناك آلية لا نعلمها هي التي تقرر هذا الأمر من ناحية عمليات التطور ومدد كل مرحلة منها؟ وهل يمكن إسناد هذه العمليات وظهور هذا النظام الدقيق في الكون، والحياة على سطح الأرض ثم تطورها وتوسعها وتكاملها إلى المصادفات العشوائية، في الوقت الذي تبين قوانين الاحتمالات استحالة ظهور جزيئة بروتين واحدة تلقائياً وبعوامل المصادفات؟ وحتى لو فرضنا أن بضعة أفراد من كل نوع تطور وانقلب إلى نوع آخر، فعمر أي نوع من الأحياء يكفي لحدوث مثل هذا التطور؟ فهل كان عمر هذه الأفراد الذين تطوروا يبلغ الملايين من السنوات؟

لا يملك الداروينيون ولا العلم الإجابة على هذه الأسئلة. وكل ما يستطيعون أمام هذه الأسئلة هو قولهم: "إن هذا هو ما حدث". ويقولون هذا باسم العلم.

أمر مهم آخر أضل الداروينيين

أمر آخر مهم خدع الداروينيين وقادهم إلى الوهم، وهو قيامهم بـــالنظر من زوايا عدة فروع مختلفة من العلوم إلى نقطة واحدة لمسألة ما. بينما يجب ألا يقع أي علم من العلوم في تناقض مع علم آخر في هـــذا الكـــون في أي موضوع من مواضيع النظام في عالم الجماد أو الحياة في هذا الكون ولا سيما في عالم الأحياء. أي يجب ألا تتناقض علوم الرياضيات والفيزياء والكيميـــاء وعلم النبات وعلم الحيوان والجيولوجيا وعلم المتحجرات فيما بينـــها عنـــد القيام بتفسير الوجود.

ولكن عندما نقوم بأي بحث من البحوث، أو بأي تجربة من التجـــارب في حقل أي علم من العلوم أو في أي فرع من فروع الحياة فنحن لا نتخـــذ الطفرات ولا التكيف ولا الانتخاب الطبيعي كـــسند، أو كقاعـــدة لهـــذه الأبحاث والتجارب. إن القوانين التي نكتشفها في الكون وفي الحياة لا تستند إلى الطفرات، أو إلى الانتخاب الطبيعي... الخ.

أي إن ٩٩ % من الأسماء التي نطلقها على الإجراءات الإلهية الـــتي أدت إلى ظهور الحياة واستمرارها، تعمل ضمن نظام معين مستمر منذ ملايـــين السنوات على المنوال نفسه، ونحن نقوم بأبحاثنا وبتقويمنا وتفسيرنا للظـــواهر استناداً إليه. فمثلاً نقوم بالاستعانة بعلم العقاقير (pharmacolocy) وبعلـــم الطب الوقائي بصنع الأدوية والعقاقير. وعند النظـــر في تأثيرهـــا وطـــرق

استعمالها لا نأخذ بنظر الاعتبار أن البكتريات المسببة للأمراض قد تتطـــور وتنقلب إلى أنواع أخرى.

وعندما تكون هذه المسألة موضوع بحث عند التطوريين الذين زعموا أن هذه البكتريات تطورت في السابق، نرى أنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتكـــرار وإعادة مثل هذه التطورات فيها، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع علم العقاقير أو إلى علم الطب نراهم لا يؤمنون بمثـــل هـــذه التطـــورات، ولا يأخذون التطور ولا النظريات الأخرى المستندة إليه بنظر الاعتبار. ولا نتوقع في المضادات الحيوية التي نستعملها ضد الأمراض أن تقوم جـــراثيم مـــرض الجذام بالتحول عن طريق الطفرات إلى جراثيم مرض السل، أو تحول بعضها إلى جراثيم الكوليرا، ولا نفكر هكذا أبداً. كما يستند الطب الوقـــائي إلى قاعدة قيام الجراثيم بالمحافظة على ماهيتها.

أجل!.. فكما زود الله تعالى كل كائن حي بآلية الدفاع عـــن نفـــسه، كذلك قد تقوم البكتريا ببعض الطفرات داخل النوع عند تعرضـــه لـــبعض أنواع الأدوية. ولكن هذا التغير يكون محصوراً فقط في إطار القيام بزيـــادة قدرته الدفاعية وتطوير نظام المناعة عنده. ولا تؤدي هذه التغيرات الصغيرة إلى طفرات تغير في نوع هذا الكائن، فهذا مستحيل. ثم إن هذه الكائنـــات كائنات مجهرية. والتغير الذي يصيبها في ثلاثين سنة يعادل ملايين الـــسنين لدى الإنسان. وإذا كان من غير الممكن حصول تغير في النوع عند هـــذه الكائنات الصغيرة في ثلاثين عاماً، فهذا يدل على أن عمر الأرض لا يكفي لحصول التطور. هذا علماً بأن العلم أثبت أن الطحالب الزرقاء والخـــضراء التي تعيش في البحار كانت موجودة قبل خمسين مليون سنة.

إذن دع عنك موضوع الثلاثين سنة فإن هذه الأحياء لم يصبها أي تغير أو تبدل خلال خمسين مليون سنة، وهي اليوم كما كانت في السابق.

الوجود الزوجي: الذكر والأنثى

ونستمر في فرض وقوع بعض المستحيلات والمحالات فنقــول بأنــه تم ظهور الديدان عن طريق التطور. ولكننا نلاحظ وجود الزوج لا في الأحياء فقط، بل في الجماد كذلك. والذين يقومون برسم صور القرد وهو يقترب من الإنسان مرحلة مرحلة يرسمون في الأخير صورة رجل غربي في متوســـط العمر. ولكنهم لا يقولون شيئاً حول كيفية ظهور المرأة. لذا نتساءل: كيف ظهرت الأنثى الأولى لهذا الكائن، وأين؟ وهل ظهرت بجانب الرجــل أم في مكان آخر؟ وكيف عثر أحدهما على الآخر؟ ومن أين حصلا على غريــزة التزاوج؟ وهل كان هذا أيضاً نتيجة المصادفات؟ ثم هل فكر أحدهم في عدد السنوات اللازمة لتحول مئات الآلاف من الأنواع من نــوع إلى نــوع، ثم نشوء الأجيال الجديدة من ذكر وأنثى وتوزعها في كافة أرجاء العالم؟

الخلية والفعاليات المختلفة فيها

أودّ هنا أن أوجّه الأنظار إلى نقطة أخرى، وهي أن للخلية خاصية الحفاظ على نفسها، وهي تعمل عمل حكومة، وتعد جزيئات D.N.A. الموجودة فيها بمثابة قائد أو حاكم يقوم بتعيين طبيعة بنية الإنسان البيولوجية. ثم هناك جزيئات R.N.A. التي تقوم بعمل المهندس والكيميائي فيقوم بعمليات التركيب والدمج، وكأن القدر أودع موضوع تعيين وضع الإنسان وماهيته في هذه الجزيئات. وهذه الجزيئات تحتوي على معلومات موجودة بشكل شفرات والتي تملأ مئات المجلدات، وتظهر عندما يحين الوقت المناسب بشكل تفاعلات تؤدي إلى صنع البروتينات اللازمة للخلية. و لم يجد الفكر المادي مرجعاً لهذه العمليات الباهرة ولهذه الآلية المدهشة التي ترسل بموجبها جزيئات D.N.A الشفرات إلى جزيئات R.N.A. التي تقوم بفك هذه الشفرات إلا إسنادها إلى هذه الجزيئات وإلى المصادفات.

ومع أننا لا نملك اليوم معلومات قاطعة حول الخلق الأولي للخلية فإن العلم الحديث يعطي لنا معلومات كثيرة حول الخلية، حيث يعرض كل جزء من أجزائها أمامنا، ويوضح لنا مدى التعقيد الذي تتميز به الخلية. ولو كان دارون يملك المعلومات الحالية عن الخلية لقال عنها ما قاله عن العين. فهو يقول في رسالة له إلى صديق: "كلما فكرت في العين زادت حيرتي وذهولي"، لأنه لم يكن يستطيع تفسيرها بالانتخاب الطبيعي. ولو استطاع أن ينظر إلى الدماغ وكيفية ظهوره لتضاعفت حيرته وذهوله.

من الصعب سرد جميع خواص الخلية، ففيها فعاليات كثيرة كفعاليات جيش كامل. فكل ما يحتاجه الجسم يركب هناك ويصنع. وللخلية غشاء يملك جزيئات لها شفرات تميز بها الخلية المواد النافعة من المواد الضارة. وإذا ظهرت الحاجة أضيفت شفرات أخرى كذلك. وتتصرف هذه الجزيئات كنقاط شرطة وحراسة، أو كموظفي الكمارك، فتفتح الأبواب أمام المواد المفيدة، وتبدي ردود فعل ضد المواد الضارة، وتعلن حالة الطوارئ في الخلية. وتبدي الخلية مقاومة ضد أي تدخل أجنبي، وإذا لم تستطع المقاومة تمرض، وأحياناً تموت. هنا تتعاون خلايا الجسم وتقوم بإخراج هذه الخلية الميتة خارج الجسم.

عند وقوع تدخل خارجي على خلية ما تقوم هذه الخلية بمقاومة التدخل، وترمي بالجراثيم الضارة خارج الجسم. أما إن عجزت عن المقاومة مرضت وماتت. وقد يؤدي هذا المرض إلى موت الإنسان. وهذا يعني أن أي تدخل خارجي لا يستطيع تغيير ماهية الخلية. وإذا لم تكن المادة المتدخلة متكيفة مع الخلية ومفيدة لها قامت بإفسادها أو سعت بها إلى الموت.

والخلاصة أنه ليس من المستحيل ظهور وتكون كائن حي فحسب، بل لا يمكن أن يحدث أي حادث تلقائياً ومن نفسه. فلا يستطيع حجر صغير أن يغير مكانه تلقائياً، ولا يتعرض للتآكل دون حدوث تأثير خارجي. وألا يكون غريباً أن نقوم بإنكار الخالق وإنكار خلقه للكون ولجميع الأشياء والحوادث وإدارته الدائمة لها؟ وربط كل شيء وكل حادثة كذلك بسلسلة السبب والنتيجة، وإنكار وجود أي شيء خارج القوانين، والنظر إلى الطبيعة وكأنها عبارة عن هذه القوانين، وإنكار وجود أي تأثير آخر خارج الطبيعة وخارج قوانينها!!

أي إننا بهذا نعزو الألوهية إليهما، ثم نتناقض مع أنفسنا فندعي -من أجل إنكار الالوهية- أن هذا الكون الرائع وكل ما يحويه ظهر تلقائياً. وهل

هناك مثال آخر لإنكار هذه الشناعة وهذا البعد عن العلم وعن العقل وعن المنطق؟ بينما نرى أن الإنسان قد جُهِّز بقابليات وملكات كثيرة ومتعددة ومدهشة من الناحية الذهنية والقلبية. وهو مع هذا صاحب شعور وإرادة، وله علاقات وارتباطات مع الزمان والمكان. وعلاوة على هذا فهو لا يكتفي بهذا بل تراه يهتم بما وراء الزمان والمكان.

وعدا هذا فهو مجهّز بعواطف لا تعد ولا تحصى، لذا فهو مخلوق كامل مرشح لحياة خالدة. لذا فإن النظر إلى مثل هذا الوجود الإنساني وكأنه مرتبط فقط بالمادة وبالطبيعة وبالمصادفات وبالقوانين التي لها قيم نسبية فقط، وبفرضيات -كفرضية التطور- يعد أكبر إهانة للإنسان وللإنسانية ولأصحاب هذه الفرضيات أنفسهم. أجل ما من أحد غير الإنسان يستطيع فعل ما فعله الإنسان نفسه ضد الإنسان. ولهذا نرى أن القرآن الكريم يصف هؤلاء -الذين خرجوا واستقلوا عن الإنسانية- بأنهم ظالمون.

رحلة قصيرة في العالم الخارجي وفي داخل أنفسنا

يدعم كل موجود صغيراً كان أم كبيراً في هذا الكون وجـوده ضـمن توازنات دقيقة وحساسة جداً ومذهلة. وهل يستطيع الإنسان وهـو يـرى الحكمة والمصلحة والتناسق والتلاؤم الموجود في كل شيء في هذا الكـون والوضع العام له ألاّ يفكر في الخالق وألاّ يصيح: "الله أكبر"؟ هنا لا نحتاج أن نذهب بعيداً أو نفكر بهذا أو بذاك، بل يكفي أن نـتمعن في أنفـسنا وفي أجسامنا، حيث نرى أن جميع الفعاليات معيرة ومنظمة بواسطة الهرمونـات وآليات الأعصاب، ويظهر نظام (System) دقيق وخارق للعادة.

وتقوم جميع الأعضاء وكذلك جميع الخلايا بأداء الوظائف الملقاة علـى عاتقها دون أي خلل أو قصور ونحو هدف واضح ومصلحة واضحة، دون أن تتسبب في أي ضرر لأي جزء من أجزاء الجسم ولا في نظامه أو عملـه. وبما أنه لا يمكن التفكير في وجود أبسط ساعة أو في توقع وجودها من دون صانع، فكيف يمكن تناسي وجود من يرى ويعير ويقود جميـع الفعاليـات الحيوية الدقيقة الجارية في جسم الإنسان والتي تفوق دقة الساعة وتعقيـدها بملايين المرات؟ إن هذا سيكون أكبر إهانة للفكر وللتفكير نفسه.

إن الدقة الكبيرة الموجودة في الكائنات الحية، والكمال الموجود في أعضاء حواسها، وامتلاك كل كائن أكثر الأعضاء والحواس ملائمة له، يـشير إلى وجود من يرى كل شيء ويعلم كل شيء ويملك علماً لا يحده حـد. وفي

ضمن إطار هذا العلم نلاحظ تخطيطاً دقيقاً ومتكاملاً، وقدرة تقوم بتحقيق هذا التخطيط. وإلا فكيف يمكن تفسير كل هذه الأمور؟

ومن أجل إلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع دعنا نُشِرْ إلى أمرين أو ثلاثة باختصار: "ماذا كان يفعل طائر البجع (Pelican) المسكين -الذي يملك منقاراً وفماً يساعده على أكل السمك- لو لم يجهز برجلين غشائيتين تساعدانه على السباحة؟ أنستطيع أن نقول إن هذا الطائر فكر كثيراً ثم قرر أن يطور لنفسه منقاراً ورجلين غشائيتين؟ وهل نستطيع أن نقول إنه طور معدته وجهازه الهضمي بنفسه حتى وصل إلى وضعه الحالي؟ أم نعزو كل هذا إلى المادة وإلى الطبيعة التي لا تعرف لا هذا الطائر ولا حاجاته ولا السمك ولا الماء؟ أم نعزو كل هذا إلى رياح المصادفات العمياء التي ظهرت أنها غير موجودة في الطبيعة بدءاً من أصغر أجزائها إلى أكبر أجرامها السماوية؟ أم نزعم بأننا نستطيع حل هذه المسألة بنظرية التطور التي تستند إلى الطبيعة وإلى المادة والمصادفات العشوائية؟

واعجبا!.. ما أضعف هذه الادّعاءات!! وما أهزل ما تستند إليه!! وأليس من أكبر الإهانات لنعمة العقل عزو جميع الصفات الموهوبة لملايين الأحياء من أنظمة التغذي والتناسل والوقاية والصيد...الخ الخالية من أي خطأ أو خلل، ولباس الجلد الذي فُصّل تماماً على أجسادها وكأن خياطاً ماهراً قام بتفصيله لباساً وزينة لها... أيمكن عزو كل هذا إلى المادة الميتة الخالية من العقل ومن الشعور، أو إلى القوانين الطبيعية؟

ونرى في عالم النباتات أيضاً هذه الحيوية الباهرة، وهذا التناسق والتناغم، وهذا النظام الذي لا يبارى، ونقرأ إشارات حافلة بالأسرار عن قوة لانهائية تحيط بكل شيء. ولو استطعنا تحقيق رحلة أو سياحة تنطلق مما يبدو أضأل شيء وأقله أهمية، فمن يدري ماذا سنشاهد وماذا سنرى، حتى إن القلوب الواعية والعقول المفكرة سترى أشياء عجيبة حتى في حشرة العث التي تعيش

على المواد المتعفنة والتي تلعب بعض أنواعها دور إكسير الحياة. ففي كل ركن من أركان الكون هناك أمارات وإشارات تهمس بوجود حكيم مطلق الحكمة زيّن هذا الكون بالحكمة والفن والعلم والاقتصاد.

ولو قمنا بنزهة قصيرة في العالم الخفي لديناميكية الهواء وفي عملية تلقيح النباتات بواسطة الريح لرأينا أموراً عجيبة ومدهشة. ولو استمعنا إلى لسان الحكمة والفن في كوز شجرة الصنوبر فقط، ودخلنا إلى العالم الخفي لعملية تلقيح حبوب الطلع للخلية الأنثوية، وفهمنا الحوار المحفوف بالأسرار بين الرياح والنباتات لتجلّت لنا لوحات بديعة، وفهمنا معاني همسات سحرية في هذا العالم البديع.

لقد خلق الخالق العظيم كوزات كل نوع من أنواع الراتنجيات بشكل مختلف. وكل نوع من أنواع الكوز هذا يعمل على حصول تيار هوائي خاص به، وبهذه الطريقة يقوم بتحميل حبوب طلع نوعه بأفضل اسلوب، وإجراء عملية التلقيح بأفضل شكل. ففي كل نوع من أنواع الصنوبر يلعب قطر الكوز وطوله وشكله وعدد حبوب الطلع والزاوية التي يشكلها الكوز مع المحور العمودي وسرعة الريح دوراً مهما في عملية التلقيح. وهناك آلية لم يتم الكشف بعد عن أسرارها يقوم كل نوع من أنواع الصنوبر بها بتنقية حبوب طلعه بواسطة أكوازه في الهواء. وعملية التنقية هذه تجعل حبوب الطلع الملائمة تطير في الهواء، كما تمنع الأعضاء التناسلية للفطر من الوصول إلى بويضة الشجرة.

ودعنا الآن نقم برحلة قصيرة في الغابات التي تعد "رئات المدن" والتي أصبحت اليوم عليلة ومنهكة القوى، وضعيفة، لنرَى التساند الوثيق بين الأشجار وبين الإنسان ولا سيما غنى الغابات الاستوائية من الناحية البيولوجية، حيث نشاهد علاقات قوية بين أنواع عديدة من الحيوانات والنباتات، وجريان هذه العلاقات في جو مذهل من التلاؤم والتناغم.

وعلى الرغم من التشابك الشديد الذي يظهر في الفعاليات الحياتية في الغابات الاستوائية، فهناك نظام في غاية التناسق بحيث تنتبه القلوب الحساسة إلى مدى الروعة الموجودة فيه وكأنها تسمع شعراً أو موسيقى. إن روعة الفن الالهي الظاهر في الغابات الاستوائية وكماله يبدو ظاهراً بشكل واضح، فلا يتم أي إسراف حتى في أبسط مادة وأصغرها.

وكل موجود عندما يحين أجله يتحول من قبل أحياء موظفة من أجل الاستفادة منه وإعادته بعد مدة وجيزة إلى مادة مفيدة للغابة. وهذا التوازن المستمر منذ ملايين السنين، وهذا التلاؤم والتناغم، وهذا التقسيم الخارق للعمل، وسلسلة التعاون المدهش المتحقق بين النباتات والحيوانات، وهي مخلوقات مختلفة بعضها تماماً عن البعض الآخر، من الصعب على الإنسان حتى في المستقبل القيام به على ما أعتقد.

وإذا أتينا إلى عالم الحيوان نرى أن هناك حوادث خارقة للعادة إلى درجة لا يمكن تفسيرها حتى بالعقل والشعور. والمنبع الأساسي وراءها هو العلم والإرادة اللانهائيتان اللتان تحتضنان الوجود كله. وإلا فمن خداع النفس القيام بتفسير كل هذه الروعة بمصطلح غائم وضبابي لا تعرف ماهيته مثل "الغريزة".

إن تزود الحيوانات ببنية تشريحية مناسبة لطراز الحياة التي تعيشها، (مثلاً وجود نسيج اسفنجي يمص الصدمات في قاعدة منقار نقار الخشب) والنظم الداخلية والاجتماعية والاقتصادية الموجودة لدى صغار الأحياء كالنحل والنمل والنمل الأبيض، وشبكة المعلومات، وقابلية تعيين الاتجاهات، والتسلسل الوظيفي القائم على التعاون فيما بينها، والنجاح الكبير الذي تبديه في الحصول على أغذيتها، وعلاقاتها المشتركة مع الأشجار والأعشاب الموجودة في بيئتها، تظهر أنها خلقت خلقاً كاملاً.

وهذه الطيور التي تقدم للإنسان موديلات في العديد من الساحات

التكنولوجية، والجراد والعناكب التي كل منها مجهزة بتراكيب وبنى تكون نموذجاً للإنسان، ولا سيما الأشكال العديدة للطيران عند الطيور، حيث إنها لا تزال متقدمة على تكنولوجية الطيران عند الإنسان وسابقه لها على الرغم من كل هذا التقدم التكنولوجي.

كذلك فإن الأنغام التي تصدرها الطيور والحشرات علاوة على كونها تعد وكأنها قطع موسيقية من ناحية الإيقاع فهي تقوم بمهمة التخاطب والتخابر. ونرى أن للثعابين والحيات -مع كونها محرومة من الأيدي والأرجل- خصائص تمكنها من الصيد. ونرى المزايا التي تتمتع بها الضفادع من أجل المحافظة على حياتها، وكذلك إدامة نسلها ونوعها. ثم هناك الأحياء المائية والمستعمرات المرجانية في الجو الساحر للبحار، والأجهزة الحساسة للعقارب، وتصرفاتها التي تقوم بها لحفظ نوعها، وكذلك أمور عديدة جداً وكلها تشير إلى الخوارق العديدة التي وإن لم تدفع التطوريين إلى الإيمان -لأنهم يتبعون أهواء أنفسهم- إلا أنها كافية لحشرهم في زاوية ضيقة وإفحامهم وإسكاتهم.

نستطيع إدامة رحلتنا في ساحات المرض والصحة والأدوية والمداواة ونظام المناعة في أجسامنا، وفي دنيا الجراثيم. فهذه المخلوقات الصغيرة جداً التي نقوم نحن بمكافحتها عادة بالمضادات الحيوية وبالأدوية الأخرى قد خلقت من أجل فائدة الإنسان والمخلوقات الأخرى لتأمين التوازن. أجل!. إن هذه المخلوقات المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة لصغرها تقوم بخدمة الإنسان. ومع أنها تكون ذات فوائد كبيرة حيناً، تكون ذات مضار أيضاً في المحيط السيء الذي نقوم بتهيئته.

ونحن نشاهد كيف أن نظام المناعة الموجود في أجسامنا -والذي يعدّ من أعقد الأنظمة وأكثرها خفاء وأسراراً- في يقظة دائمة وانتباه ضد الأمراض، وكيف يقوم وكأنه أركان حرب بالتدخل في الوقت المناسب وفي المكان

المناسب، وبالدخول في صراع مع مختلف الجراثيم ولا سيما مع الخلايا السرطانية. ومن المتوقع أن تظهر الجوانب الأخرى المخفية له في المستقبل، وعندئذ يكون في الإمكان -بإذن الله- التغلب على الكثير من الأمراض التي تبدو الآن مستعصية على العلاج، لذا فآمالنا معقودة على هذا. وعلى الرغم من قيام أجسامنا بنضال ناجح عموماً ضد الخلايا السرطانية، إلا أن جهاز المناعة لا يكفي وحده في هذا الخصوص، لذا تتم تجربة طرق خطرة في علاج هذا المرض. ونحن نأمل حصول تقدم أكبر في هذا الصدد بإنتاج مواد مضادة، ونظراً لعدم استعمال الأشعة والنظائر هنا يكون الضرر الملحق بالمرضى أقل بكثير. وسيأتي يوم تتخلص فيه البشرية من هذا الكابوس.

وعلى الرغم من كل هذه الحقائق الواضحة فإن قضية إنكار الله تشغل حيزاً كبيراً في هذا الفكر المادي الذي أقيم على أساس الديالكتيك والصراع، وهو وبفكر مسبق ودوغمائي لا يرى شيئاً خارج المادة ولا يعترف به. وبعد أن يقوم بكل عجالة ودون تمعن كاف بإنكار الخالق العظيم، نراه يحاول تفسير النظام والتناغم ولوحات الجمال المتداخلة بعضها في بعض في أرجاء هذا الكون بعبارات مبهمة وباهتة وضبابية أمثال (القوة، المادة، الطبيعة) مع تناسي الحِكم والمصالح والمنافع التي تتجلى في القوة وفي المادة.

لذا فكان من المحتم عزو كل هذه الخوارق التي تبدو في الآثار البديعة والفنون المتجلية في شتى المعارض على الأرض، وصور الجمال والنظام والدقة المتجلية في الكون إلى ذات علوية يرى كل ما خلقه وصنعه ويعلمه، بدلاً من عزوها وإسنادها إلى المادة الصماء الخالية من الحياة ومن الشعور، وهم بذلك ارتكبوا أغرب خرافة فكرية وأخرقها وأشنعها.

إن النظريات المادية من أمثال "الوجودية" و"الحياة" التي ضللت العديدين حتى الآن، تم تناولها من قبل العديد من المفكرين مرات ومرات بطرق وأساليب مختلفة، وقومت بطرق وأساليب مختلفة، وفي النهاية لم يستطع أحد

أن يدخلها بأي أسلوب ماكر في دنيا العلوم الوضعية و لم تتم البرهنة على صوابها على الرغم من محاولات التحميل العديدة التي قاموا بها، ومحاولات تحبيبها إلى الجماهير، وتبين في الأخير أن هذه النظريات لا تملك أي مصداقية، ولا أي نصيب من الصحة.

وقد تبين في أيامنا بكل وضوح بأن الوجود كله مرتبط بقوانين معينة هي من صنع قدرة لانهائية سامية فوق كل شيء، وأن الحياة وجميع خصائصها تختلف عن الخصائص المادية. فإن أردنا إيراد مثال على هذا نقول مثالاً معروفاً للجميع وهو أنه على الرغم من تعرض المادة -التي ينسبون إليها كل شيء- إلى تغيرات مستمرة في أبداننا فلا تتعرض حياتنا ولا ماهيتنا لأي تغيير، بل تستمران بشكلهما الأصلي، وهذا مثال واحد حول موقع المادة ودرجة تأثيرها ومدى ثقلها في الأحياء.

والحقيقة أن جميع الاكتشافات الحديثة للعلم تبين أن المادة ليست رقيبة ومسيطرة على كل شيء مثلما يدعي الماديون، وليست جميع الأشياء عبارة عن دورات للمادة ← الطاقة، والطاقة ← المادة، وأن خلق الوجود ودوامه معقد بدرجة كبيرة بحيث يستحيل تفسيره بالمصادفات، أو عزوه إليها، وأن قواعد النظرة المادية ضعيفة ومتهافتة، وإن كانت من قبل تبدو قوية ومتماسكة.

إن المادة سواء على سطح أرضنا أو خارجه عمياء وصماء وخالية من الحياة ومن الشعور، لا تستطيع إدارة نفسها بنفسها ولا تحريك نفسها بنفسها. كما يستحيل على الأجزاء المكونة للمادة القيام تلقائياً وإنجاز هذه الخوارق. إن القدرة اللانهائية هي التي تدفع الموجودات من ظلام العدم إلى الوجود، وتهب الحياة لبعض الموجودات وتجمع الذرات وتحركها وتدفع بها في الشعيرات الدموية الدقيقة، وهي التي تدفع الموجودات -ببرامجها النابعة من العلم اللانهائي- بعد خلقها نحو الغايات التي خلقت من أجلها.

وبناء على هذا فإن كل شيء، بدءاً من أصغر أجزاء الـذرة إلى أكـبر منظومة كونية في تناغم وتلاؤم فيما بينها، وفي علاقات منظمة وموزونة. لذا فإننا نعدُّ أن النظر إلى أن كل هذا من الخصائص الأساسية للمادة انخـداع ووهم، وأن هناك حاجة إلى نظرة أصح وأكثر إلى الأشياء وإلى الحـوادث عند القيام بتفسيرها.

أجل! فمن ناحية هناك الخلق الأولي الذي يعد معجزة المعجزات، ومـن ناحية أخرى هناك عمل جميع المنظومات منذ خلقها حتى الآن بكل نظـام ودقة، والمحافظة على هذا النظام الساري في كل مكان، إضـافة إلى توسـع المكان أي الكون، وقابلية الكون على الانقسام في أثناء هـذا التوسـع إلى أجزاء تحولت فيما بعد إلى كتل المجرات. فكيف نستطيع تفسير كل هـذه الأمور المتناقضة فيما بينها؟

فماذا تعني مثلاً قوة الجاذبية الموجودة بين الكتل -وهي قـانون وقـوة خلقها الله تعالى- التي تتناقض مع قوة توسع الكون وتعاكسها؟. وكـذلك نرى أن الدماغ يؤدي وظائف مختلفة ومتناقضة فيما بينها في اللحظة نفسها، وأن أموراً وأوضاعاً وأحوالاً عديدة مختلفة تظهر فجأة، فإذا لم ننسب كتاب الكون -الذي تظهر فيه الفروق ضمن وحدة شاملة، والتناقـضات ضـمن إطار من الوحدة- إلى صاحبه الحقيقي، فكيف نستطيع تفسير خصائصه وما يتقلب فيه من حوادث وأمور؟

فإن قمنا بإغماض أعيننا عن الخلق الأولي، وتناولنا كل ما ظهر بعد ذلك من الأحياء وكل شيء وكأنه واضح وظاهر ولا يحتاج إلى أي إيـضاح أو تفسير... إن فعلنا هذا ألا يعد هذا التصرف ضربة موجعة إلى العلـم وإلى الكرامة العلمية؟

"الخلق" كما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية

قبل استعراض الآيات المتعلقة بالخلق، سنلقي نظرة مختصرة على الهوية الإعجازية للقرآن فنتناول بعض الآيات القرآنية في هذا الصدد. إن القرآن الكريم ذا البيان المعجز هو الذي يجب أن يتكلم وهو الذي يجب أن يصدر أحكامه ويختم الموضوع بختمه. والقرآن بآياته التي لم تُفهم حق الفهم إلا مؤخراً يشير إلى الأفق الأخير لما يستطيع العلم بلوغه، وسيجد العلم عندما يتقدم في أي ساحة من ساحاته راية القرآن وهي ترفرف في الأفق البعيد لتلك الساحة، ومن المحتمل أنه في بعض الساحات لن يستطيع بلوغ تلك الراية. ولكي تتوضح المسألة أرى من المفيد أن أورد بعض الآيات:

١- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦).

تعد الحيوانات أمارة من أمارات وجود الله ووحدانيته، والله جل جلاله يسقينا هذا الحليب -الذي يعد غذاءً كاملاً- ويستخلصه من بطون الأنعام من خلال الدم والروث. وقد ثبت علمياً أن الغذاء الذي يتناوله الحيوان يتم هضمه في المعدة وفي الأمعاء، وأن الفضلات تبقى في الأمعاء ريثما يتم طرحها خارجاً، وأن الدم الذي يتكون من الهضم يمتص من قبل بعض الغدد ويرسل إلى الأوعية الدموية. وهكذا تتم التصفية الأولية، وبعد ذلك يتحول

جزء من الدم الآتي إلى الغدد الحليبية إلى غذاء لخلايا هذه الغدد، ويتحول الجزء الآخر إلى حليب.

وقد أثبت العلم الحديث أنه لكي يتحول ما يأكله الحيوان إلى حليب يجب أولاً هضمه في المعدة ثم تصفيته من الفضلات والروث، ومن ثم تصفيته وترشحه من الدم. والتعبير القرآني هنا (من بين فرث ودم) يعني أن الغذاء يتحول إلى حليب بعد عمليتين من التصفية في الروث وفي الدم. وقد كان من المستحيل على رسول الله ﷺ أن يعرف هذا الأمر -الذي أخبر به من قبل الله تعالى- قبل ١٤ قرناً، فهذا شيء علّمه إياه القرآن الكريم المنزل من قبل الله تعالى.

٢- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

يقوم القرآن بشرح حال الغارق في مستنقع الكفر والضلالة، الذي قد ضاق صدره فلا يستطيع الخلاص من تعاسته وضيقه، ويعطي القرآن هنا مثالا لمثل هذا الشخص الذي يضيق صدره كلما ذُكر الدين والإيمان، أي يشرح شيئا مجهولاً بشيء معلوم فيقول: "أتدرون ماذا تشبه حال الشخص الذي ضاق بكفره والذي يدخل في دوامة من الاضطراب والضيق كلما ذُكر الدين أو الإيمان؟" ثم يصور حال مثل هذا الشخص فيقول بأنه يشبه حال من أجبر على الارتفاع في السماء. ولا يقول القرآن أنه "يصّعّد في جبل" بل يقول إنه "يصّعّد في السماء". ولم يكن الصعود في السماء مألوفا حتى وقت قريب، كما لم يكن معروفا من قبل أن تنفس الإنسان يصعب كلما صعد في السماء بسبب قلة الاوكسجين. والقرآن يقوم قبل ١٤ قرنا بسرد هذه الحقيقة عند ذكره مثالا حول الإيمان.

٣- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢).

فهم بعض المفسرين القدامى هذه الآية فهماً جيداً وبالمستوى اللائق. فمثلاً عندما يقوم ابن جرير الطبري الذي عاش قبل ١١ قرناً (الوفاة هـ٣١١/٩٢٣م) بتفسيرها يذكر شيئاً يشبه الكرامة. فهو يذكر أولاً ما قاله ابن عباس عندما سُئل: ما المراد من قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢)؟ ثم يضيف قائلاً: "تقوم الرياح أولاً بالتلقيح في عالم النباتات ثم تقوم بتلقيح السحب".[١]

ولكن أكثر المفسرين الذين أتوا بعده، وحتى المفسرين في القرن العشرين لم يستطيعوا أن يروا هذا المعنى في هذه الآية فاقتصروا على ذكر دور الريح في تلقيح النباتات، بينما تقوم هذه الآية بعد ذكر خاصية الرياح في التلقيح بذكر المطر مباشرة.

إن رؤية ابن جرير لقصد القرآن هنا شيء يستحق التقدير حقاً. لأن كون السحب ذات شحنات كهربائية، وقيام الرياح بسوق هذه السحب والتقاء الشحنات السالبة والموجبة في السحب وتكونها دائرة كهربائية قصيرة التي تؤدي إلى انهمار الأمطار من الإكتشافات العلمية الحديثة. وكما أخبر القرآن هذا الأمر قبل ١٤ قرناً فقد فهم ابن جرير هذا المعنى قبل ١١ قرناً فتحدث عن قيام الرياح بتلقيح السحب.

ثانياً إن كلمة "لواقح" الواردة في الآية تأتي من فعل "لقح، يلقح". إذن فهناك ثنائية الموجب والسالب والذكورة والأنوثة في النباتات وفي السحب، حيث لا يتم التلقيح إلا بينهما. وهذا أيضاً ما أخبر به القرآن قبل ١٤ قرناً.

---

(١) جامع البيان للطبري، ١٤/١٩-٢٢.

ثم إن القرآن ذكر في آيات عديدة أن كل شيء قد خلق زوجين اثنين.(١) وهذا معجزة أخرى للقرآن.

٤- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣).

تستعرض الآية تراكم السحب وكيف أنها تبدو مهيبة كالجبال. و لم يكن في وسعنا أن نعرف قبل استعمالنا للطائرات وصعودنا للسماء بأن السحب تبدو كالجبال. والآية الكريمة تتحدث عن سقوط الأمطار من بين السحب ولكن الأمر الذي اريد الوقوف عنده هنا هو التعبير الآتي: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، لأننا ونحن في الطائرة عندما ندخل داخل سحب تدعى "سحب الأعاصير" نحس بوجود قطع جليدية بين السحب، وهذا أمر يعرفه الطيارون جيداً. وإذا اصطدمت هذه القطع بجناح الطائرة قد تثقبه. ويذكر القرآن وجود المطر بين السحب التي تشبه الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ وكذلك وجود البرد فيها ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ أي أن جزءً من البرد فقط هو الذي ينزل، وليس كله. ومقابل إخبار القرآن هذا قبل ١٤ قرناً لم يكن العلم يعلم حتى الأمس القريب أن السحب تبدو كالجبال، ولا أن بعض السحب تكون سحب الأعاصير، وأنها تحتوي على قطع جليدية، ولا أن بعض هذه القطع تسقط وبعضها تبقى هناك.

٥- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

في عام ١٩٢٢م قدم العالم الفلكي هوبل كشفاً هدية لدنيا العلم، وهو ما دُعي بـ"مُعامل هوبل". كان هذا الكشف يتعلق بظاهرة قيام المجرات بالابتعاد عنا بنسبة وبسرعة معلومة. ثم فسر العالم الرياضي البلجيكي

---

(١) أنظر: يس: ٣٦ الذاريات: ٤٩.

"لاماتري" هذا الأمر بأنه "توسع المكان". فمثلاً إن كانت المجرة الموجودة في برج الدلو تبتعد عنا بسرعة كذا من الكيلومتر في الدقيقة، فإن مجرة أخرى أكثر بعداً عنا تبتعد بسرعة أكبر. ويتم قياس هذه السرعات عن طريق تحليل طيف تلك المجرة ومدى انحرافه نحو الأحمر.

ثم اعترف علماء مشهورون آخرون مثل "جيمس جينز" و "أدنجتون" بأن المكان – أي الكون – يتوسع، وبدأوا يدافعون عن هذا الاكتشاف. ومال آنشتاين إلى هذا أيضاً. وسواء أكان هذا التوسع عن طريق ابتعاد المجرات بعضها عن بعض أم كان حسب قول آنشتاين "أن هناك عوالم تتشكل في أماكن لا نستطيع معرفتها"، أي أن هناك توسعاً غامضاً لا ندرك كنهه... سواء أكان هذا أم ذاك فالأمر سيان.

والآية هنا لم تربط السماء بأي سبب من الأسباب، بل ذكرت بأن الله تعالى هو الذي بناها وخلقها، ثم أردفت الآية بجملة اسمية ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والجمل الفعلية في اللغة العربية تفيد التغير والتجدد، بينما الجمل الاسمية تفيد الثبات والاستمرارية. والجملة هنا إسمية أي تفيد استمرارية التوسع وثباته. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية حول توسع المكان- مثل غيرها من الحقائق العلمية الأخرى- قبل ١٤ قرناً.

وبعد الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية الموجودة في القرآن، وإلى إعجاز القرآن في هذا الصدد، نستطيع الانتقال إلى حقيقة الخلق الواردة في القرآن.

حقيقة الخلق في القرآن

سنشير من القرآن الكريم -الذي يعد معجزة من أوّله لآخره- إلى أربع آيات فقط حول منشأ الإنسان لنختم هذا الموضوع. ولكن نرى من المفيد أن نورد تقويماً عاماً حول الآيات المتعلقة بالخلق في القرآن.

إن الآيات المتعلقة بخلق سيدنا آدم ﷺ مثلما تتناول هذه المسألة من ناحية القدر، تتناولها أيضاً من ناحية مراحل الخلق مرحلة فمرحلة. كما يتناول القرآن -كما ذكرنا من قبل- المراحل التي يمر فيها الجنين في رحم أمّه. أي أن القرآن الكريم يتناول المراحل التي يمر منها جنين كل إنسان -بعد آدم ﷺ- بعد قيام نطفة الذكر بتلقيح بويضة الأنثى حتى وصوله إلى إنسان كامل وسوي. وهو يتناول أحياناً منشأ الإنسان الأوّل وخلقه بجانب شرح مراحل تطور الجنين، ويتناولهما أحياناً بالشرح كلاً على حدة. فعلى المستوى المادي كان التراب مادة الخلق الأولي في المرحلة الأولى للإنسان الأوّل وللناس الذين جاءوا من بعده، ثم من طين رخو ملتصق، ثم من سلالة مصفاة من هذا الطين (سلالة من طين) ثم من حمأ مسنون، أي من طين أسود مهيأ للتفسخ ليتحول إلى الهيكل الإنساني، والذي رُسم له طريق وهدف معين، ثم من طين مفخور يرن، أي من صلصال:

هذه المواد تومئ إلى المراحل التي تشكل فيها الإنسان. والمراحل التي يعيشها الجنين في رحم أمّه مشابهة لهذه المراحل. ولا يهم إن كان عدد هذه المراحل أربع أم ست مراحل، لأن من الممكن إرجاع بعض هذه المراحل

لبعض. ولكن المهم هنا أن هذا الحساء الترابي بمواده الأوّلية شكل أساس خلق الإنسان مرحلة فمرحلة. ولا شك أن لعنصر الماء دوراً كبيراً في تحويل التراب إلى حساء للمعادن أو إلى حساء بروتيني. ويوضح القرآن هذا الحساء في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢). وتشير الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠) إلى أهمية الماء. والظاهر أن اتحاد الماء مع التراب يشكل مرحلة أخرى مختلفة.

ثم تأتي بعد هذا مرحلة التشكيل وإعطاء صورة خاصة للإنسان، حيث تشير الآية : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) إلى هذا الأمر. ثم تأتي مرتبة "التسوية"، أي وضعه في توازن تام بكامل هيأته: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩).

وبهذه المرحلة الأخيرة ظهر في الكون موجود ومخلوق جديد يملك مع مادته معناه وروحه بشكل متداخل ومتمازج... مخلوق جديد يملك مع بدنه المتناسق الكامل عمقاً روحياً. وحتى وصول الإنسان إلى هذا المستوى مر من المراحل التالية (مهما كانت حقيقة المعاني الحقيقية لهذه الكلمات ومحتواها): تراب فطين، فسلالة من طين، فطين لازب، فحمأ مسنون، فصلصال، ثم شرّفه الله تعالى بأن نفخ فيه من روحه وجعله خليفة وكرّمه وجعله من أشرف المخلوقات. ودامت هذه المراحل حول هذه الخصائص الإنسانية عند الذين جاءوا من بعد الإنسان الأول. ويمكن تأمل ومشاهدة التداعي الموجود بين المبدأ والحالة المستمرة بكل متعة.

إن المغامرة الإنسانية لبني آدم في المجيء إلى الأرض وتشريفهم لها، والتي بدأت بخلق إعجازي لسيدنا آدم وأمّنا حواء عليهما السلام، أصبحت تبدو وكأنها أمر من الأمور العادية، وذلك لكي يكون هناك حجاب وستار للأفعال وللشؤون الالهية، وستستمر هكذا.

والغاية الأصلية من استمرار الحياة في الأرض -التي خلقها الله تعالى والتي يرغب الإنسان في استمرارها ويدعو لذلك- هي معرفة الله جل جلاله والعبودية له. فالله تعالى هو الذي وهب له الإرادة والشعور والعقل والقلب وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وتجلت إرادته في جعل آدم محراباً.[1] لذا كان على هذا الإنسان أن يعلم -تجاه هذه المشيئة الإلهية- أن عليه القيام بوظيفة معرفة خالقه وتعريفه للآخرين، وحبّه وتحبيبه، لكي يوفي بجزء من الشكر الواجب عليه حيال من جعله في أحسن تقويم.

والآن لننتقل إلى الآيات القرآنية المتعلقة بالخلق:

١- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥).

يقول لنا القرآن حول هذا الأمر الذي جاء في مواضع متعددة منه مع بعض التقديم والتأخير في بعض الكلمات ما يأتي: "لقد قلنا لآدم أقم أنت وزوجك في الجنة واتخذاها مسكنا لكما، وتمتعا بما فيها من نعم".

ولو كان التطور صحيحاً ومتحققاً لما بدأ القرآن بتناول الظهور الأوّل للإنسان بالحديث عن آدم وحواء (عليهما السلام). ولو فرضنا للحظة صحة ما يدعيه التطوريون لما أهمل القرآن الإشارة إلى هذا الأمر مطلقاً نظراً لأهميته الكبيرة من زاوية الوجود ولا سيما من زاوية الأحياء. ولو كان التطور -حسبما يتصور بعض البسطاء والسذج- هو أسلوب الخلق عند الله تعالى وستاراً لإجراءات الله تعالى في خلق الحياة لتناولت بعض الآيات هذا الأمر مراراً وذكرته وأشارت إليه. بينما يبدأ القرآن في موضوع الإنسان من آدم وحواء مباشرة، ولا يشير للتطور لا من قريب ولا من بعيد.

---

(١) إشارة إلى أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم ﷺ. (المترجم)

وقد زعم بعضهم أن الآية الأولى من سورة الدهر ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان: ١) تشير إلى التطور، بينما تشكل هذه الآية دليلاً معاكساً للتطور لأنها تشير إلى أن وقتاً طويلاً قد مر دون أن يكون هناك أي إنسان. وقد فهم بعض من أحسوا بهزة أمام الدعاية التطورية القوية من هذه الآية بأنه كان هناك أثر ضئيل للإنسان في العهود السابقة السحيقة، ولكنه لم يكن بعد إنساناً متكاملاً. وحتى لو كان هذا هو المعنى فهذا يشير إلى أن الإنسان كان موجوداً في العلم الالهي وفي خطة القدر، ولا علاقة لمثل هذا الوجود بالوجود البيولوجي. وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى وقلنا بأن الإنسان هو نواة الكون، فهذا أمر يرجع إلى ماهية الإنسان. ثم إن النواة قبل الوجود وقبل شجرة الوجود. وهذا ينقض التطور من أساسه.

٢- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

عندما بدأ الناس يقعون في شك تجاه خلق عيسى عليه السلام وولادته من غير أب، قام القرآن بإيضاح هذا الأمر، كما فتح نافذة أخرى حول خلق الإنسان الأول. أي كما لم تتحقق ولادة السيد المسيح عليه السلام ومجيئه إلى الدنيا بشكل عادي (أي حسب القوانين السارية على الجميع)، بل جاء بمعجزة إلى الدنيا من غير أب، فهذا أمر يجب الا يدهش أحداً، لأن آدم عليه السلام جاء أيضاً إلى الدنيا بمعجزة. هذا علماً بأن آدم عليه السلام لم يكن له أم كذلك. إذن فالله تعالى يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، وهو قادر على كل شيء. ولكن لكي نفهم إجراءاته، ولكي نستطيع إدامة حياتنا في هذه الدنيا فقد خلع على إجراءاته لباساً من الأسباب والقوانين. وهكذا بدت الحوادث ظاهرياً وكأنها مطردة على نسق واحد ومستديم. ولو كان العكس لما كانت هناك حياة. ولكنه يقوم أحياناً واستناداً إلى حكمة وسبب معين بخرق هذا الاطراد. ونحن نطلق

على هذا اسم "المعجزة". وهكذا فإن خلق عيسى وآدم عليهما السلام من ضمن هذه المعجزات. فلم يكن هذا الخلق -كما يدّعي التطوريون- مرتبطاً بمرحلة معينة أو بقانون أو تكيف أو بطفرات معينة.

يقوم القرآن في أحيان كثيرة بضرب الأمثال والتشبيهات للحقائق المجردة أو المتشابهة التي يصعب فهمها. وعند القيام بالتشبيه يجب أن يكون هناك تقارب بين المشبه والمشبه به بحيث يجوز ضرب المثل من أحدهما للآخر. فالذين لا يريدون الإيمان بولادة عيسى عليه السلام دون أب، عليهم أن يتأملوا خلق آدم عليه السلام، فلم يكن لآدم أيضا أب، بل لم يكن له أم أيضاً. فمن يؤمن بهذا لا يمكن ألا يؤمن بمثال عيسى عليه السلام.

إذن فالناس كانوا يؤمنون بخلق آدم عليه السلام من قبل الله تعالى كمعجزة حتى ظهور نظرية التطور، فقام القرآن استناداً إلى هذا بضرب مثال خلق آدم عليه السلام. لأنه لا يمكن شرح مجهول بمجهول آخر، بل بمعلوم. ففي التاريخ الإنساني كان الناس يؤمنون بآدم عليه السلام ويعدّونه أباً للإنسانية كلها. كما تناول تاريخ الأديان آدم عليه السلام على هذا الأساس حتى ظهور دارون، و لم يشذ أحد عن هذا. وبعد دارون بدأ بعضهم بتقديم بعض الأحياء كالقرد والنسناس سلفاً وجدّاً للإنسان. وهذه الآية تذكر بشكل واضح لا لبس فيه بأن آدم عليه السلام هو أبو البشرية وأنه خُلق من قبل الله تعالى بشكل إعجازي.

٣- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٢٩).

وتشرح هذه الآية أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من تراب، ومن طين... من طين بدأ بالتعفن وأعطي له شكل معين (حمأ مسنون)، ثم يبس هذا الحمأ المسنون فأصبح صلصالاً. فالإنسان مخلوق من هذا الصلصال الذي أعطي له شكل إنساني، ونفخ فيه روح إلهي. وهناك حديث شريف يذكر بأن آدم

خلق من جميع تراب الأرض، أي كأنه ترشح من جميع عناصر الأرض. وربما كان القصد من "الحمأ المسنون" الوارد في الآية حساء من البروتين أو معجون من البروتين. وقد يكون هذا الترشح والتصفية وراء إسم آدم عليه السلام: "صفي" أو "صفي الله".

وعندما نتأمل هذه الآية والآيات السابقة التي أوردناها، نرى أن آدم عليه السلام لم يُسند إلى أي منشأ آخر خارج التراب والماء، أي خارج عناصر الأرض، وأنه لم يمر بمراحل تطورية من دود إلى ضفدع وطائر وحصان وقرد. فكما أن كل إنسان مخلوق من ماء مهين، أي من نطفة تقوم بتلقيح البويضة في رحم الأم ثم يمر الجنين بمراحل عديدة، وينفخ فيه الروح في مرحلة معينة منها، وكما أن الوجود المادي للإنسان يستند إلى العناصر الآتية من الهواء والماء والتراب، فالله تعالى خلق آدم عليه السلام على نفس النمط من العناصر المترشحة من هواء وماء وتراب الأرض، لكي يشكل هيكله المادي، ويعين ماهيته المستقلة، ثم نفخ فيه من روحه في إحدى هذه المراحل، ولكن دون أب ولا أم.

والحقيقة أنه كما يذكر القرآن حول خلق عيسى وآدم عليهما السلام خلقاً إعجازياً، أحدهما دون أب،[1] والآخر دون أب ودون أم، ويشير إلى العلاقة الموجودة بين كلا الخلقين من زاوية الإعجاز، كذلك نرى عدم وجود فرق كبير بين خلق آدم عليه السلام -إذا استثنينا خلقه دون أب ولا أم- وبين خلق من جاءوا بعده. ففي كلتا الحالتين استند الخلق إلى عناصر الهواء والتراب والماء، ففي إحداهما انقلبت هذه العناصر إلى نطف في صلب الأب وبويضة في رحم الأم، وفي الأخرى تحولت إلى حياة في موضع ومكان قام مقام رحم الأم.

---

(١) نظرا لكون الرجل هو الذي يلعب الدور الرئيسي في عملية التناسل، فإن الإعجاز الأصلي هو الخلق دون أب. و "النفس الواحدة" الواردة في القرآن الكريم (النساء: ١) والتي جاءت منها البشرية جمعاء تشير إلى آدم عليه السلام في أكثر الأقوال. لذا يتم إرجاع البشرية عادة إلى آدم عليه السلام.

٤- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

يقول القرآن بأن جميع الناس يرجعون إلى "نفس واحدة"، ويرفض رجوعهم إلى سلسلة من الآباء. ويجب هنا تقويم تعبير النفس الواحدة التي خلق منها زوجها حسب الشرح الذي أدرجناه في الهامش،[1] وكذلك حسب الحقيقة الواردة في عدد من آيات القرآن حول خلق كل شيء زوجين اثنين. فليست هذه النفس الواحدة، وليس زوجها التي خلقت بالماهية الإنسانية نفسها حلقة من حلقات تسلسل ما، فهو أب لنوع خاص، وزوجه أم النوع نفسه.

(١) انظر: الهامش السابق

بعض الآيات القرآنية حول الخلق

١- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)

٢- ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

٣- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (ص: ٧١-٧٤).

٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ (الفرقان: ٥٤).

٥- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ (فاطر: ١١).

٦- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ٢).

٧- ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

٨- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة: ٧-٩).

٩- ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤).

الخلق كما ورد في الأحاديث الشريفة

١- قال رسول الله ﷺ: "استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء".[١]

٢- وكما هو واضح في الحديث فإن رسول الله ﷺ لا يربط خلق حواء بأي عملية تكاملية أو تطورية.[٢] قال رسول الله ﷺ: "إن أباكم آدم عليه السلام كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً".[٣] يذكر الرسول ﷺ بشكل واضح لا يدع مجالاً لأي تأويل آخر بأن آدم عليه السلام هو أبو الإنسان الأول.

٣- قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب".[٤] كما يفهم من هذا الحديث فإن منشأ وأصل آدم عليه السلام كأنه من معجون مركب مأخوذ من

---

(١) البخاري، الأنبياء ١١ مسلم، الرضاع ٦١-٦٢؛ سنن الدارمي، النكاح ١٣٥ الإمام أحمد بن حنبل، المسند ٥/٨٨.

(٢) في موضوع خلق حواء (عليها السلام) من ضلع آدم عليه السلام انظر إلى: "أسئلة العصر المحيرة" للمؤلف.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٤٠٤-٤٠٥. وانظر كذلك: البخاري، الإستئذان ١. من الطبيعي أن يكون هذا هو قامة الإنسان في ذلك العصر الذي كان سطح الأرض مغطى بالغابات، ولم يكن بنو الإنسان بالعدد الكافي للانتشار في أرجاء الأرض. وبما أن شروط وظروف الإقليم وطبيعة سطح الأرض هي التي تؤثر في طول أو في قصر قامة الإنسان، فإن كثافة عدد السكان تؤدي إلى قصر القامة. ولكي ندع باب التفسير واسعاً نقول بأن ابن خلدون يرى أن القامة المذكورة لآدم عليه السلام هي قامته عندما كان في الجنة. والله أعلم.

(٤) الترمذي، تفسير السورة ١- ١٢؛ أبو داود، السنة ١١٦؛ المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤/٤٠٠ - ٤٠٦.

جميع أرجاء الأرض. فالله تعالى قام بمثل هذا التركيب وخلق منه آدم عليه السلام.

٤- قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله عز وجل آدم تركه ما شاء الله أن يَدعَه فجعل إبليس يُطيف به ينظر إليه فلما رآه أجوفَ عرف أنه خَلْقٌ لا يَتمالَك".[١]

لا نعثر في هذا الحديث على أي عبارة تومىء لا من قريب ولا من بعيد إلى التطور. فالشيطان تأمل هيكل آدم عليه السلام وهو في مراحل الخلق ورأى فيه فجوات كثيرة، وتوصل إلى نتيجة أن الإنسان مخلوق لا يستطيع السيطرة على نفسه. وهذا أمر في غاية الأهمية، فكما هناك علاقة بين قلبنا البيولوجي وقلبنا الذي يعد مركز حياتنا الروحية والمعنوية، كذلك فمن المحتمل وجود علاقة شبيهة بين البنية المادية للإنسان وبين خُلقه وطباعه. والحديث ينبه إلى الضعف الموجود في طباع وخُلق الإنسان، وإلى مشاعر الحقد والطمع والشهوة والغضب والمكر، التي إن لم تتم تربيتها قادت الإنسان إلى الهلاك الروحي والمعنوي.

٥- قال رسول الله ﷺ: "لما نفخ الله في آدم الروح فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله".[٢]

نقرأ في البخاري الرواية الآتية: "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال له: اذهب وسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن".[٣]

---

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل ٣/١٥٢.

(٢) موارد الظمآن للهيثمي ١/٥٠٨؛ الصحيح لابن حبان ١٤/٣٧، ٤١.

(٣) البخاري، الإستئذان ١؛ الأنبياء ١؛ مسلم، الجنة ١٢٨ الترمذي، تفسير القرآن ٩٤؛ المستدرك للنيسابوري ١/١٣٢.

وكما هو واضح في هذه الرواية فإن آدم عليه السلام لم يكن استمراراً لمخلوق آخر، بل كأول مخلوق، فعندما نفخت فيه الحياة عطس، وعندما عطس قال: "الحمد لله". إذن فلم يكن حتى ذلك الحين قد تنفس، ولم يكن قد تكلم بعد كلمة ولم يكن قد خوطب من قبل أحد، ولم يكن هناك أي مخلوق إنساني بعد. أي أن الإنسانية بدأت بآدم عليه السلام.

٦- قال رسول الله ﷺ: "يدخل أهل الجنة الجنة جُـرْداً مُـرْداً بيضا مُكحلين أبناء ثلاث وثلاثين سنةً على خلق آدم ستون ذراعاً في عَرْضِ سبع أذرع".[1]

الذراع هي المسافة بين أطراف أصابع الإنسان حتى مرفقه، وكان طول آدم عليه السلام ستون ذراعاً، وبعرض سبع أذرع من ناحية المنكبين.

---

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٩٥، ٣٤٣، ٤١٥.

الخلق كما ورد في الكتاب المقدس

ولنذكر هنا بشكل مختصر وبآيتين من باب التكوين في التوراة:

«خلق الله الرب آدم من تراب الأرض، ونفخ في أنفه نفحة الحياة فأصبح آدم مخلوقاً حياً".[1] ويتناول خلق حواء على وجه الأرض: "لم يكن حسناً بقاء آدم وحيداً، عليّ أن أصنع له معاوناً... وقام الإله الرب بوضع نوم عميق على آدم، فنام آدم فأخذ ضلعاً من أضلاعه وملأ مكانه لحماً، وصنع الرب من الضلع الذي أخذه حواء وجلبها لآدم".[2]

أجل!... إن الكتاب المقدس، وجميع الكتب الإلهية تذكر ما ذكره القرآن من أن الإنسان الأوّل خلق من قبل الله تعالى، ومن عناصر الأرض. ويؤمن بهذا جميع منتسبي الأديان. أي لا يوجد هنا تطور بالمعنى الذي قصده دارون، و لم يأخذ الإنسان شكله الحالي عن طريق التطور.

(١) الكتاب المقدس/التوراة، التكوين ٢/٧.

(٢) الكتاب المقدس/التوراة، التكوين ٢، ١٨، ٢١-٢٢.

خلاصة القول

حاولنا خلال هذا الكتاب عرض الحقيقة الآتية:

مهما تكلم بعض المحافل العلمية وبعض العلماء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومهما أبدوا من اهتمام ومهما ورد في بعض كتبهم أو في محاضراتهم فلا يوجد أي سند قوي ولا أي برهان أو حجة قوية في تأييد نظرية التطور. إذ لم يتم العثور على المتحجرات التي تربط الإنسان بالقرد. وتمت عمليات تزييف في بعض المتحجرات، كما جمعت متحجرات أخرى من أماكن مختلفة وأكملت فجواتها وأقسامها الناقصة بعمليات مونتاج. وعلم الجينات يرد مثل هذا الأمر.

إن تركيب جزيئات D.N.A وبنيتها تستوجب وجود علم وقدرة لانهائية وراءها، ولا تبقي أي فرصة أو احتمال لتكونها نتيجة المصادفات أو أي تدخل خال من الشعور والإدراك. وجميع ما زعم أنها أدلة لا تعدو أن تكون فرضيات أو تأويلات بعيدة ومصطنعة. وقد ملئت جميع الفجوات الكبيرة الموجودة في هذه النظرية بفرضيات خيالية. أما بعض المزاعم التي طرحت انطلاقاً من وجود بعض المشابهات فهي تقييمات وتفسيرات أخذت بنية الكائنات الحية بنظر الاعتبار وأهملت وظائفها في الحياة. لذا فهذه التقييمات والتفسيرات لا ترتقي إلى مستوى البراهين.

والشيء الحيوي في هذا الموضوع أن ما تم تقديمه كأدلة في هذا الصدد، إنما تم من قبل المؤمنين بهذه النظرية، لذا كان من الضروري فحص وتدقيق

هذه المزاعم بأكملها. فكما أن المصادفات لا تملك أي موقع مهما كان صغيراً في هذا العالم، كذلك يستحيل قيام أي كائن حي بخلق نفسه بنفسه من العدم. والتجارب التي قام بها العالم الفرنسي باستور، وكذلك التجارب الأشمل التي تمت في هذا الصدد ردت ونقضت فكرة الظهور التلقائي للكائنات الحية. وحتى إن فرضنا المستحيل وظهرت فروق في كائن حي نتيجة بعض الشروط والظروف فهي لا تكون مستنداً أو سبباً للتحول إلى نوع آخر، كما لم يتم العثور على أي مثال على هذا. أي أن تلك الفروق كانت نتيجة سماح بنية وتركيب ذلك الحي لها.

وعلاوة على هذا فإن جميع الأديان السابقة، وجميع الأنبياء وجميع الكتب المقدسة تذكر بشكل واضح أن كل شيء -وضمنه الإنسان طبعاً- قد خلق من قبل الله تعالى. أي لا تفتح أي باب لقبول نظرية التطور.

إن هذه المسألة ليست من اختصاصي، وقد قمت فقط بشرح للخطوط العريضة والأساسية منها، وهي تحتاج إلى شرح تفصيلي أكثر. وأنا أضرع إلى الله تعالى مبدياً عجزي وفقري، وجاعلاً هذا العجز والفقر شفيعاً لي، وسائلاً المولى تعالى أن يوفق العلماء المختصين في هذا الموضوع لتناول هذا الموضوع بشروح أكثر تفصيلاً، ومن جميع جوانبه، لكي ينقذوا الأجيال من الانخداع بهذه النظرية التي تقدم على الدوام في سبيل إنكار الخالق. وأنا مطمئن بأنهم سينجحون في هذا. وأنا مقتنع بأنه قد آن الأوان لكي تؤلف الكتب التي تقول الحقيقة في هذا الموضوع، بدلاً من الكتب المؤلفة في الغرب من قبل الأوساط التي تؤمن بنظرية التطور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.